الجانب النفسي لأسلوب النداء في دعاء الأعراب

في "العقد الفريد" لـ"ابن عبد ربه"

دراسة بلاغية

دكتور

شيماء عبد الرحيم توفيق محمد

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنات القاهرة

الملخص

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعـــالمين، وعلى آله وصحبه والذين اتبعوه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد.....

فموضوع هذه الدراسة "الجانب النفسي لأسلوب النداء في دعاء الأعـــراب في "العقد الفريد" لـــ"ابن عبد ربه" دراسة بلاغية"، وهي دراسة بلاغية تهدف إلى استكشاف جانب من جوانب التفكير عند الأعراب وهو الجانـــب النفســـي لأسلوب النداء في دعائهم، ورد الأسرار البلاغية والبيانية إلى مرجع ما يكون من حسن الكلام وجودته إلى أصول نفسية يفسرها ويعللها على أساس منهـــا، وتفسير ما يجده المتلقي في نفسه من أثر هذا الكلام بأسباب أو عوامل نفسية، ومعرفة الأسباب البيانية التي جعلت دعاءهم مثلا وأنموذجا للدعاء، هذا وقـــد اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحـــث: المبحـــث الأول: توطئة، والمبحث الثاني: بين النداء والدعاء، والمبحث الثالث: التفســـير النفسي لبلاغة أسلوب النداء، ثم الخاتمة، وثبت للمصادر والمراجع، وفهـــرس للموضوعات.

الكلمات المفتاحية: الجانب النفسي– أسلوب النداء– دعـــاء الأعـــراب – دراسة بلاغية .

شيماء توفيق

قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنات القاهرة، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية

shimobosho27@yahoo.com

Abstract:

Praise be to God, Lord of the worlds, and prayers and peace be upon the one who was sent as a mercy to the worlds, and upon his family and companions, and sweetened him with kindness until the Day of Judgment, and after.....

The subject of this study is “The psychological aspect of the appeal method in the supplication of the Bedouins In "aleaqd alfarid" by "abn eabd rbih" rhetorical study" It is a rhetorical study that aims to explore an aspect of the thinking of the Bedouins, which is the psychological aspect of the method of the call in their supplication, and to return the rhetorical and rhetorical secrets to a reference that is good and quality of speech to psychological origins that he explains and justifies on the basis of them, and the interpretation of what the recipient finds in himself from the impact of this Talking about psychological reasons or factors, and knowing the graphic reasons that made their supplication an example and a model for supplication. The appeal, then the conclusion, and proven sources and references, and an index of topics.

Keywords: the psychological aspect - the style of the call - the supplication of the bedouins - a rhetorical study.

Shaimaa Tawfiq
Department of Rhetoric and Criticism,
Faculty of Islamic and Arabic Studies,
Cairo Girls, Al-Azhar University, Egypt.
shimobosho27@yahoo.com

المقدمة

الدعاء عبادة وثناء، وطلب ونداء، وتضرع وتذلل، وسعي وتقدم، وعنوان انكسار النفس وخضوعها، وهو من أغراض القول التي استحدثها الإسلام، أصدقها قولا، وأكثرها عاطفة وحرارة، إذ يُكشف فيه عن مكنون قلب الداعي، ويُتبجح فيه باحتياجه، متوسلا إلى عليّ قدير أن يكشف السوء، خوفا وطمعا في مغفرته ورضوانه، تقربا للمؤمنين من الله – ﷻ –، وإدناء لعباده المخلصين.

أهمية البحث:

يكشف البحث الموسوم بـ" الجانب النفسي لأسلوب النداء في دعاء الأعراب في "العقد الفريد" لـ"ابن عبد ربه" دراسة بلاغية" عن جانب من جوانب التفكير عند الأعراب وهو الجانب النفسي لأسلوب النداء في دعائهم، فلا تقوم دراسة واحدة بدراسة بلاغتهم الصوتية والإفرادية والتركيبية والدلالية والتصويرية، وإنما عنيت هذه الدراسة بدراسة الجانب النفسي من جوانب تفكيرهم، وهو رد الأسرار البلاغية والبيانية إلى مرجع ما يكون من حسن الكلام وجودته إلى أصول نفسية يفسرها ويعللها على أساس منها، وتفسير ما يجده المتلقي في نفسه من أثر هذا الكلام بأسباب أو عوامل نفسية، وربط ما يصطنعه منشيء القول من وسائل وأدوات بيانية بهذه الأسباب والعوامل النفسية.

كما أن لقول "غيلان" إذا أردت أن تسمع الدعاء فاسمع دعاء الأعراب"[١] حافزا لمعرفة خصائص هذه الأدعية التي اعتبرت مثلا في الدعاء؛ لإخلاص النوايا، والتوجه كلية إلى الله – تعالى –، وتوفيق الله لهم بإلهامهم للدعاء، والافتقار، وصدق اللجأ والرغبة والرهبة إليه؛ ولذلك قال: "عمر بن عبد العزيز:"ما قوم أشبه بالسلف من الأعراب لولا جفاء فيهم"[٢] .

خطة البحث:

اقتضت خطة البحث أن يقسم إلى مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث: المبحث الأول: توطئة، والمبحث الثاني: بين النداء والدعاء، والمبحث الثالث: التفسير النفسي لبلاغة أسلوب النداء، ثم الخاتمة، وثبت للمصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات.

هدف البحث:

البحث في خصائص الكلام عن خصائص النفس، ومحاولة الوقوف على جوهر تفرد أسلوب الأعراب من خلال الفحص الدقيق لكلامهم، إذ كان كلامهم أشرف الكلام حسبا، وأحسنه ديباجة، ومدار الكلام كله عليه، وكشف جوانب حياتهم الإنسانية، واستكشاف الحقائق الغامضة، ومعرفة

(١) العقد الفريد. ابن عبد ربه الأندلسي، تح: أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري،٤١٨/٣، ط٣، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٩١هـ – ١٩٧١م.
(٢) السابق ٤١٨/٣

طبيعة النفس عندهم، ومناحي تفكيرهم، وتفسير الدلالات التي تكمن وراء ندائهم.

الدراسات السابقة:

هذه الدراسة من الدراسات البكر في مجال الدراسات التطبيقية على كلام الأعراب، فلم يعثر البحث على دراسة بلاغية لكلام الأعراب في مظان البحث المختلفة.

منهج البحث:

اعتمدت الدراسة على المنهج التحليلي البياني الذي يستعين بالمناهج الأخرى كالمنهج النفسي والاجتماعي، وقامت باستقراء أدوات النداء التي وردت في أدعية الأعراب وحصرها؛ للوقوف على الموائز الأسلوبية التي تقتضي التعبير بهذه الأداة دون سواها، أو حذفها حسبما يقتضيه المقام، محاولة للكشف عن العامل النفسي الدافع للتعبير بهذه الأدوات دون سواها.

أسئلة البحث:

يجيب البحث عن سؤالات يثيرها النظر في أقوال العلماء المختلفة منها:

س- لماذا كان كلام الأعراب أشرف الكلام حسبا، وأكثره رونقا، وأحسنه ديباجة؟

س- لماذا كان مدار الكلام كله على كلام الأعراب، ومُنتسبه إليه؟

س- لماذا قدم "ابن عبد ربه" الدعاء في كلام الأعراب على غيره من أغراض القول؟

س- هل كشف دعاء الأعراب عن احتياجاتهم ومآربهم ومشـــكلاتهم في الحياة؟ وما علاقتهم بها؟

س- ما الدلالات التي تكمن وراء دعاء الأعراب؟

التمهيد

خلق الله الإنسان مادة وروحا، وسخر له الحواس خادمة حارسة، وميزه بالفكر الذي يرتفع به عن الموجودات الأخرى، فيفهم ويتخيل ويتصور، ويشك ويثبت، وينكر ويقر، ويجادل ويسالم، ويحس بناء على ما يعرفه عن الأشياء من صفات يدركها بفهمه وفكره، ويظهر أثرها على حواسه وأفعاله، قال جلّ شأنه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ (الشمس:٧)، ومعرفة النفس علم دقيق، يعين على معرفة الحقيقة، وهو أمر شديد الصعوبة؛ لأنه يعم كثيرا من الأشياء، فلا ينطبق عليه منهج واحد، ويختلف باختلاف طبائع البشر، ويبحث عما هو أكرم وأشرف ما في الذات البشرية: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢١].

أولا: المعاني النفسية:

هي قوة شعور وصور متخيلة في نفس المتكلم، لا يستطيع أن يقيدها بالألفاظ أو يغلها بالكلام حتى تغدو منه منحدرة إلى أغوار العقل الباطن، وحديث النفس ما يرتسم فيها من صور لا تخص فردا بعينه، ولكنه يسكن كل نفس على اختلاف الناس مع تشابههم، فهم مختلفون متشابهون، متشابهون بصورهم وتركيبهم ووضعهم ووصفهم، ومختلفون في الشكل والمعنى؛ ولذلك تتفاوت الطرق المتبعة في تحديد صفات كل نفس "فالمباديء تختلف باختلاف الأشياء المختلفة"(١)، والنفس البشرية في أول

(١) كتاب النفس. أرسطو طاليس. ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني، مراجعة: الأب جورج شحاتة ، ص٤، ط٢، العدد ١٧١١/٢، المركز القومي للترجمة ٢٠١٥م.

مراتب إدراكها آنس بالجانب الحسي والوهمي (الوساوس الخيالية والوهمية) أكثر من الجانب العقلي؛ لسبق الحس والوهم في الفطرة الإنسانية على الجانب العقلي، فالوهم يأخذ من الحس[١]، والحس يعرض الأفكار على خلاف ما يتوقع، ويرتبط بالزمان والمكان، فإذا انعدما عسر على الذهن التصديق، كما أن علماء الطبيعة تختلف آراؤهم حول حقيقة الإدراك بالحواس، ومذاهبهم في هيئة الإحساس غير متفقة، والمقاييس مختلفة، فتختلف النتائج، ويتعذر اليقين؛ لأن الإدراك لا يصح إلا بتأمل جميع معاني الشيء، وتفقد جميع أجزائه، تقدمت المعرفة به أو لا[٢]، أما الجانب العقلي فهو الحاكم الذي لا يخطيء تقديره، وهو الذي يرقى الإنسان بسببه إلى اليقين لإيمانه بعالم الغيب، وهو مجال عمل الفكر والعقل ولا محل فيه للحس والأشياء الطبعية؛ لأن إدراك الأشياء المادية يكتنفه كثير من الغموض والإبهام[٣]، ففي تخيل المحسوسات يحتاج الذهن إلى مجهود لا يحتاجه إذا تصور أو تعقل "..أن النفس حين تتصور كأنما تلتفت إلى ذاتها وتنظر في فكرة من الأفكار التي لديها. ولكنها حين

(١) ينظر معيار العلم، الغزالي، تح: د.سليمان دنيا، ص٥٩ وما بعدها، ط٣، دار المعارف ٢٠١٨م.

(٢) ينظر تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر. كمال الدين أبي الحسن الفارسي، تح: مصطفى حجازي، مراجعة: د.محمود مختار، ص٣٥٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٤هـ ـ١٩٨٤م.

٣(٤) ينظر التأملات في الفلسفة الأولى. ديكارت، ترجمة: عثمان أمين، ص٢٣٢، عدد ١٢٩٧/٢ المركز القومي للترجمة ٢٠١٤م.

تتخيل تلتفت إلى الجسم وتنظر فيه إلى شيء يطابق الفكرة التي كونتها هي نفسها"[١]، فما يصح في النفس هو ما تعلمه[٢]، وتتيقن منه؛ لأنه إدراك مع فضل تأمل، فهو في غاية التحقق، فالنفس من معاني التوكيد.

وبالنفس تُدرك صور الأشياء كلها كلياتها وجزئياتها، صغيرها وكبيرها، وهي المحرك المختار، ومبدأ المعرفة، والإحساس، والشوق، والإرادة، والنزوع على العموم[٣]، وما به نحيا، ونحس، ونفكر، وهي التي توجه الإرادة نحو الفعل أو الترك، والأفعال التي تخص النفس هي التفكير، فالمعنى النفسي هو المعنى الفكري أو العقلي، وهو معنى يخص الفرد دون غيره ويختص به.

ثانيا: الدعاء:

الدعاء لغة: النداء، والسؤال، والطلب، والاستغاثة، والتمني، والتسمية، ويطلق على عبادة الله، وتوحيده، وتعظيمه، والثناء عليه،

ينظر التأملات في الفلسفة الأولى ص ٢٤٠)١(

(٢) "ويعبر بالنفس عن المعلوم في قولهم: قد صح ذلك في نفسى، أي: قد صار في جملة ما أعلمه". الفروق اللغوية. أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، ص٥١٩، ط١، تح: الشيخ. بيت الله بيات، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ«قم» ١٤١٢هـ.

(٣) كتاب النفس ص ٣٧

والتضرع إليه طلبا للعفو والرحمة أو الحظ من الدنيا على طريق الكناية[١].

تعقب الدعاء في كلام الأعراب يسفر عن مأربهم في الحياة الدنيا ومبتغاهم، واضمحلال جميع أحوال الدنيا والعمل للآخرة، فكل مطلب يُظفر به يُعقب حزنا إما لذهابه عنك، أو لذهابك عنه، وكل إنسان يدعو الله ويطلب منه على قدر همته وشرف نفسه، وأشرف الناس نفسا من كانت بغيته مرضاة الله ومعرفته وحب لقائه.

ثالثا: من هم الأعراب؟ وما هي صفاتهم؟

الأعراب: هم سكان البوادي والبراري، أهل البادية الذين لا يقيمون في الأمصار، ولا يدخلونها إلا لحاجة، يسكنون الخيام ولا يستقرّون في موضع معيّن، أصحاب نجعة وانتواء وارتياد للكلإ، وتتبع لمساقط الغيث سواء كانوا من العرب أو من مواليهم.

ومادة(عرب) لغة تدور حول الإبانة، والإفصاح، والتبيين، والإيضاح، والتهذيب، والسلامة من الهجنة، والصفاء[٢]، وهكذا كان بيان الأعراب صافيا نقيا، خاليا من الهجنة، معربا عن القصد، "والأعراب يومئذ هم أهل الفصاحة، يلتمسهم الرواة، ويحملون عنهم ويرون فيهم بقية

(١) لسان العرب. ابن منظور. تح: عبد الله علي الكبير وآخرين، مادة (دعا)، دار المعارف. د. ت.

(٥) السابق. مادة (عرب).

اللغة ومادة العرب"[١]؛ ولذلك قصدهم الولاة والخلفاء لتهذيب أولادهم، وتعليمهم فصيح اللغة؛ " لما في هواء البادية من الصفاء، وفي أخلاق البادية من السلامة والاعتدال، والبعد عن مفاسد المدنية، ولأنّ لغة البادية سليمة أصيلة"[٢].

وقد بيّنت السنة المطهرة بعضا من سخائم الأعراب وطبائعهم[٣] منها: صلابتهم وجفاؤهم؛ لمحاولتهم فرض رأيهم بالقوة، وسنّ ما ليس

(١) تاريخ آداب العرب. مصطفى صادق الرافعي، راجعه: عبد الله المنشاوي ومهدي البحقيري،٤٤/١، مكتبة الإيمان.د.ت.

(٢) السيرة النبوية. علي أبي الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الندوي، ص١٦٠، ط١٢، : دار ابن كثير – دمشق١٤٢٥ هـ

(٣) ينظر على سبيل المثال لا الحصر؛ لضيق المقام عن سرد كل صفاتهم المبثوثة في كتب السنن، صحيح مسلم. أبي الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوي، أشرف علي تصحيحه: نظر محمد الفاريابي، ص٢٨٨: ٢٨٩، كتاب (المساجد ومواضع الصلاة)، باب(وقت العشاء وتأخيرها)، حديث رقم (٦٤٤) ، ط١، دار طيبة ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م، و كتاب (المساجد ومواضع الصلاة)، باب(وقت العشاء وتأخيرها)، حديث رقم (٢٢٩) ص ٢٨٩، وكتاب(الإيمان)، باب(تَفَاضُلِ أَهْلِ الْإِيمَانِ فِيهِ، وَرُجْحَانِ أَهْلِ الْيَمَنِ فِيهِ)، حديث رقم(٥٢)، ص٧٢، وكتاب(الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ)، باب(الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)، حديث رقم (٢٦٣٩)، ٢٠٣٢/٤، و٢٢٦٩/٤، كتاب (الفتن وأشراط الساعة)، بَابٌ (قُرْبِ السَّاعَةِ)، حديث رقم (٢٩٥٢)، و٤٤/١، كتاب(الإيمان)، بَابٌ (بَيَانِ الْإِيمَانِ الَّذِي يُدْخَلُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَأَنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِمَا أُمِرَ بِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ)، حديث رقم (١٤)، ٤١/١، كتاب (الإيمان)، بَابٌ (فِي بَيَانِ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَشَرَائِعِ الدِّينِ)، حديث رقم (١٢)، و٤٢/١، كتاب(الإيمان)، بَابٌ (بَيَانِ الْإِيمَانِ الَّذِي يُدْخَلُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَأَنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِمَا أُمِرَ بِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ)، حديث رقم (١٣)، و١٩٧٩/٤ كتاب(كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ)، باب (بَابُ صِلَةِ أَصْدِقَاءِ الْأَبِ وَالْأُمِّ، وَنَحْوِهِمَا)، حديث رقم(٢٥٥٢)، وكتاب (الزكاة)، بَابُ (إِرْضَاءِ السُّعَاةِ)، حديث رقم (٩٨٩)، وكتاب=

من الشريعة فيها، ونقض العهد والغدر، والجهر بالقول، ورفع العقيرة، والفخر، والاحتياج مع القناعة، والحيطة والتحري، والوقوف عند حدود الله، والحفظ لها، وحب الجهاد والإخلاص فيه، وحب الوطن، **والجرأة والعقل:** كانت الأعراب بمنأى عن رسول الله – ﷺ– ؛ ولذلك كانوا يسألونه فيما يعنّ لهم من أمور، وما يختلج في صدورهم من شكوك دون تهيب أو خشية، وقد ذكرت السُنّة طرفا من أسئلتهم تدل على رجاحة عقل، ورصانة رأي، وجودة خاطر، وسرعة بديهة، وقريحة صافية، وطبع سليم، فلم تكن أسئلتهم استعراضا ومعارضة وجدلا، أو اختبارا لرسول الله – ﷺ – ، أو ابتلاء، بل نمّت وأفصحت عن صدق وإيمان، ومما جاء في السنة المطهرة يؤكد ذلك عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: "نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – عَنْ شَيْءٍ(١)، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ

=(الإيمان)، باب (بَيَانِ الْوَسْوَسَةِ فِي الْإِيمَانِ وَمَا يَقُولُهُ مَنْ وَجَدَهَا)، حديث رقم(١٣٥)، وكتاب (الْعِلْمِ)، باب(بَابُ مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً وَمَنْ دَعَا إِلَى هُدًى أَوْ ضَلَالَةٍ)، حديث رقم(١٠١٧).

(١) "قَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ فِي مُسْنَدِهِ: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيب، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ أَبِي سِنَانٍ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: إِنْ كَانَ لَيَأْتِيَ عَلَيَّ السَّنَةُ أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ فَأَتَهَيَّبُ مِنْهُ، وَإِنْ كُنَّا لَنَتَمَنَّى الْأَعْرَابَ" لم أعثر عليه في مطبوع (مسند أبي يعلى)، ولكنه موجود في جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم. زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السَلامي البغدادي الدمشقي الحنبلي، تح: شعيب الأرناؤوط – إبراهيم باجس، ٢٤٢/١، ط٧، مؤسسة الرسالة – بيروت١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م، وإتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد=

مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ، فَيَسْأَلَهُ، وَنَحْنُ نَسْمَعُ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ، قَالَ: صَدَقَ...."(١)، لم يُسلِّم البدوي بما بلغه عن رسول – ﷺ – ، ولم يقبله كما جاء، بل استثار ما سمعه ذهنه، وأعمل عقله، إننا أمام ذهن نشط ناقد يتساءل عما يسمعه، وقد كان رسول الله – ﷺ – يعجب من توفيقهم، وحسن بادرتهم، ويُعلم أصحابه حُسن المسألة عندما عقب على مسألة الأعرابي حين سأله بقوله: "لَقَدْ وُفِّقَ، أَوْ لَقَدْ هُدِيَ"(٢)، كما كانوا يسألونه

=العشر. أبي العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناني الشافعي، تح: دار المشكاة للبحث العلمي بإشراف أبو تميم ياسر بن إبراهيم،٢٣٩/١، كتاب (العِلْمِ)، باب (فِي الْفَتْوَى وَمُجَالَسَةِ الْعَالِمِ وَتَوْقِيرِهِ وَالنَّهْيِ عَنْ تَكْلِيفِهِ وَمَا يُسْأَلُ عَنْهُ)، حديث رقم (٣٤٩)، ط١، دار الوطن للنشر.الرياض١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م، وصحح إسناده الشيخ "أحمد شاكر" في كتابه عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير(مختصر التفسير العظيم). أحمد شاكر، ١٥٦/١، ط٢، دار الوفاء ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

(١) صحيح مسلم ٤١/١، كتاب (الإيمان)، بَابٌ (فِي بَيَانِ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَشَرَائِعِ الدِّينِ)، حديث رقم (١٢).

(٢) حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ طَلْحَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو أَيُّوبَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا عَرَضَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي سَفَرٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ نَاقَتِهِ – أَوْ بِزِمَامِهَا ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ – أَوْ يَا مُحَمَّدُ – أَخْبِرْنِي بِمَا يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ، وَمَا يُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ، قَالَ: فَكَفَّ النَّبِيُّ ﷺ ، ثُمَّ نَظَرَ فِي أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: "لَقَدْ وُفِّقَ، أَوْ لَقَدْ هُدِيَ"، قَالَ: كَيْفَ قُلْتَ؟ قَالَ: فَأَعَادَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، دَعِ النَّاقَةَ". السابق ٤٢/١، كتاب(الإيمان)، بَابٌ (بَيَانِ الْإِيمَانِ الَّذِي يُدْخَلُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَأَنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِمَا أُمِرَ بِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ)، حديث رقم (١٣).

أسئلة محددة صريحة في قضايا تحدد مصيرهم بغية الوصول إلى النجاة[1]، كما تبدو **البداهة عند الفجاءة** فحينما أجاب رسول الله - ﷺ - على سؤال الأعرابي بسؤال لم يتوقعه، أحكم الأعرابي الرد، فأجاب ولم يبطئ على طريقة أسلوب الحكيم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا، قَالَ لِرَسُولِ اللهِ - ﷺ - مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: "مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: حُبَّ اللهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ: "أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ"[2]، فكان جوابه - ﷺ -"أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ" إحسانا مشاكلا لإحسان الأعرابي، كما راعى بداوتهم، وقرب عهدهم بالإسلام، فأجاب سؤالهم عن الساعة بما يقتضيه حاله.

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، قَالَ: "تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ"، قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا شَيْئًا أَبَدًا، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا". صحيح مسلم، ٤٤/١، كتاب(الإيمان)، بَابٌ (بَيَانِ الْإِيمَانِ الَّذِي يُدْخَلُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَأَنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِمَا أُمِرَ بِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ)، حديث رقم (١٤)، حَسُن إسلام الأعرابي، وصح يقينه، وأحس إحساسا قويا بحلاوة الإيمان لصدق المجيب ﷺ؛ ولذلك صدّق مقسِّما مُقرا بإجابتهﷺ، محسنا الظن بالله ﷻ وبرسوله الكريم ﷺ، مذكيا لدعوته ﷺ في نفوس السامعين؛ ولذلك كوفئ بشهادة رسول الله ﷺ في غيبته "مَنْ سَرَّهُ ..".

(٢) صحيح مسلم، كتاب(الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ)، باب(الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)، حديث رقم (٢٦٣٩)، ٢٠٣٢/٤

ومن صفاتهم فصاحة ألسنتهم:

من يجاور الأعراب يصفو منطقه ويفصح لسانه مثلهم؛ ولذلك ارتحل إليهم علماء اللغة ليتعلموا من فصاحتهم، فأخذ عنهم كثير من علماء اللغة أشهرهم "الأخفش الأكبر" الذي أخذ عنه "سيبويه"، كما كانوا يحكّمونهم بين "سيبويه" و"الكسائي" الذي أخذ علمه عنهم أيضا(١)، كما وجه "الرشيد" ابنه "المعتصم" إلى البادية فتعلم الفصاحة، وكان أمّيا(٢)، وندم "عبد الملك بن مروان" على عدم إلحاقه لولده "الوليد" بالبادية، فقد كان لحّانا، وكان يقول:"أضرنا في الوليد حبّنا له فلم نوجّهه إلى البادية"(٣)، ويذكر "الجاحظ" أن الأعراب اتخذت من الروم والسند والبربر والنوبة رجالا ترعى إبلهم؛ لحذقهم ودربتهم، حتى أن أطفال البربر إذا صاروا إلى البدو فصحت ألسنتهم، وفاقوا الأعراب الخلص(٤).

الأعراب يُنقل عنهم، ويستشهد بحديثهم:

ذكر "الجاحظ" أنه عند ذكر الغرائب والطرائف في كتابه "الحيوان" كان الأعراب ممن وثق عنهم، يقول:" ولم نذكر، بحمد الله –تعالى–، شيئا

---

(١) طبقات النحويين واللغويين. أبي بكر محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الزبيدي الأندلسي الإشبيلي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ٦٠،٦٨ وما بعدها، ط٢، دار المعارف. د. ت.

(٢) العقد الفريد ٢/٢٧٥

(٣) السابق ٥/١٧١

(٤) الحيوان ٣/٤٣٤

من هذه الغرائب، وطريفة من هذه الطرائف إلا ومعها شاهد من كتاب منزل، ... أو بعض من قد مارس الأسفار، وركب البحار، وسكن الصّحاري واستذرى بالهضاب، ودخل في الغياض، ومشى في بطون الأودية[1] .

الحمق والغفلة:

ذكر "ابن الجوزي" أخبارا عن غفلة الأعراب وحماقتهم وجهلهم، وتندرهم بالدين، وإدراج ما ليس من القرءان الكريم فيه، ولكن رغم ذلك قد تجري الفصاحة أحيانا على لسانهم وقت اندفاعهم وطيشهم[2]، وما تذكره كتب الأدب من نوادر الأعراب للتندر بسفههم، ولكن "الجاحظ"

---

(١) السابق ١٢/٦

(٢) "عن أبي عثمان المازني أنه قال: قدم أعرابي على بعض أقاربه بالبصرة، فدفعوا له ثوبا ليقطع منه قميصا، فدفع الثوب إلى الخياط فقدر عليه ثم خرق منه، قال: لم خرقت ثوبي؟ قال: لا يجوز خياطته إلا بتخريقه، وكان مع الأعرابي هراوة من أرزن فشج بها الخياط، فرمى بالثوب وهرب، فتبعه الأعرابي وأنشد يقول: الكامل:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله فيما مضى من سالف الأحقاب
من فعل علج جنّه ليخيط لي ثوبا فخرقه كفعل مصاب
فعلوته بهراوةٍ كانت معي فسعى وأدبر هاربا للباب
أيشق ثوبي ثم يقعد آمنا كلا ومنزل سورة الأحزاب

أخبار الحمقى والمغفلين، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، شرحه: عبد الأمير مهنا، ص١٢١، ط١، دار الفكر اللبناني١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م.

ذكر طرفا يسيرا من نوادرهم تحدثوا عن الشيب وكونه نذير الآخرة، ينم عن عقلهم وحكمتهم(١).

رابعا: عمل "ابن عبد ربه" في عقده:

أحسن "ابن عبد ربه" انتهاء الجزء الثالث من عقده الفريد بـ "كلام الأعراب"، وقد تحدث قبله عن "النسب وفضائل العرب"؛ فكان كلام الأعراب أنسب وأفضل ما ذيل به الحديث عن فضائل العرب، وقد تجلى هذا في المقدمة الموجزة التي أحسن ابتداء كلامه بها، فهي مقدمة نقدية بليغة، نقدت كلامهم كله في سطرين ونصف، أفصحت عن بلاغة هذا الكلام، وحاجة الدرس البلاغي والنقدي إلى فحص هذه المقدمة الوجيزة لتتعرف على الخصائص المائزة لكلامهم التي جعلت مدار الكلام كله عليهم، ابتدأ "ابن عبد ربه" بقول الأعراب في الدعاء، وعلل لذلك بما يجعل النفس تشرأب إلى فحص هذا الدعاء ومعرفة خصائصه وموائزه التي ميزته عن دعاء غيرهم، وهو ابتداء لم يتكرر في باقي كلام الأعراب الذي نقله عنهم في الرقائق، والمواعظ والزهد، والمدح، والذم، والغزل، والخيل، والغيث، وحسن التوقيع وحسن التشبيه، والمناكح، والإعراب، والدَّين، والنوادر والمُلَح، والتلصص، والطعام، إذ اكتفى فيه بالنقل عنهم.

(١) البيان والتبيين. أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، ٣٣٣/٢، ط٧، مكتبة الخانجي ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

المبحث الأول

توطئة:

قدم "ابن عبد ربه" لكلام الأعراب خاصة في سطرين، يقول: "ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في كلام الأعراب خاصة؛ إذ كان أشرف الكلام حسبا، وأكثره رونقا، وأحسنه ديباجا، وأقله كلفة، وأوضحه طريقة؛ وإذ كان مدار الكلام كله عليه، ومنتسبه إليه."(١) وهي مقدمة بليغة موجزة إيجاز قصر، جامعة لبلاغة الأعراب قاطبة، فلم تقدم خصائص جزئية نسبية تميز بعض كلامهم، بل أوجزت بذكر جوهره الذي يحدد حقائقه، وهي حقائق مجملة تذوقية أتبعها "ابن عبد ربه" بنقد فني مجمل، فلم يحلل المواضع والعناصر التي تبرز خصائص الكلام، والتي جعلته يحكم عليه بما حكم، ولم يتشيع لكلامهم بناء على عامل خارجي كبيئتهم، وعزلتهم في الفيافي، ونفسيتهم، وحوادث التاريخ، بل حكم حكما خالصا من المؤثرات الخارجية والعوامل البيئية والنفسية والخلقية والدينية والسياسية، وصب اهتمامه على الكلام ذاته وتكوينه؛ لأنه شاعر خبر البيان البليغ وحاكه، وعرف مواطن الخطأ فيه من الصواب، وفصل بين الإساءة والإحسان، وفاضل بين درجات الإحسان، ولذا لم يحدد نقده بأمثلة ونماذج من كلام الأعراب، ولم يعقب على الكلام الكثير الذي جمعه بنقدات توضح مغزى ما أجمله في مقدمته لكلامهم، بل أبان بألفاظ مادية

(١) العقد الفريد ٤١٨/٣

جمالية، فاستعار الألفاظ الموضوعة لجمال الثياب للكلام، وهي ألفاظ في واقعها غامضة بالنسبة للكلام، تشير إلى صفات مُقدَّرة، غير محسة، ولكن هناك تشابها بين صورة هذا الكلام وبين الأشياء المحاكى بها، "وابن عبد ربه" حين عبر بهذه الألفاظ (رونقا، ديباجا، كلفة) كان مبدعا، فهو شاعر، له من المقدرة الفنية على إيجاد العلائق والتشابه بين ما هو محس وما هو عقلي، فجعل لقاريء كلامهم حالا كحال المعجب بالثوب الموشى لرونقه وحسن ديباجه، وما يثيره في نفس سامعه من الاستحسان، والعجب، والراحة، والانجذاب، والميل، وهذه الكلمات الجمالية تحاول فض مغاليق كلام الأعراب، إذ رتب فيه الوصف الجمالي على وصف جمالي آخر(١)، فرتب حسن الديباج ورونقه على شرف الحسب "وفي مثل هذه الحالة التي يرتب فيها الناقد صفة جمالية على صفة جمالية أخرى، يكون كمن يترك الخيوط سائبة الأطراف معلقة في الهواء"(٢)، ومن ثم توجّب أن يحدد مواقع الجمال وعناصره في كلامهم، وأن يضع القارئ إصبعه على موطن الحسن ويعلله تعليلا نقديا، فحكم "ابن عبد ربه" حكم ذوقي؛ لأنه باشر الكلام وتذوقه، فانسالت على قريحته أحكاما نقدية – كذلك الطعام إما أن يُستساغ فيُقبل، أو يُستهجن فيُلفظ بمجرد وقوعه على اللسان – دون ذكر لأسباب الاستحسان أو الاستهجان، وهكذا كان حكمه على كلام الأعراب فحكم عليه بشرف

(٢) ينظر في فلسفة النقد بتصرف. د. زكي نجيب محمود، ص٣٦، ط١، دار الشروق ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

(٣) السابق ص ٣٦

الحسب، وكثرة البريق، وحسن الديباج، وقلة الكلفة، فما الأسباب والخصائص التي جعلته كذلك؟ هذا ما يحاول البحث أن يكشفه من خلال الوقوف على هذه الأحكام التي أطلقها النقاد القدامى في مؤلفاتهم دون كشف أو بسط بل اكتفت فطرتهم البيانية أن تتذوق الكلام فتترقى إلى نقده بالجودة أو الرداءة.

هيأ "ابن عبد ربه" لكلام الأعراب ببراعة استهلال نقد فيها كلامهم نقدا بيانيا موجزا، ميز فيه بلاغتهم عن بلاغة بلغاء العرب كلهم، وجعل جُل البيان العليّ ينتسب إليهم ويدور في فلكهم، فبلاغتهم كالقلب في الجسم، لا تخلو منه، ولا تقوم إلا به، فشخص الكلام إنسانا يشرف بحسبه، ويعجب برونقه، ويزهو ببزته على سبيل التخييل والتأويل، وإذا كان كلام الأعراب يشرف بحسبه فإنه يستلزم شرف حسبهم بطريق أولى، لحمل كلامهم العليّ البليغ على ما يناسبه ويشاكله من صفو قرائحهم، وجلاء فطنتهم، وسرعة بديهتهم، وسلاسة مسلكهم.

والتعرض لخواص تراكيب كلام يتطلب التعرض لتراكيبه ضرورة، فمادة (حسب) تدور في أصلها اللغوي حول الشرف الثابت في الآباء ومفاخرهم؛ لأنه تحسب مناقبهم ومساعيهم وتُعَدّ، وشرف الفعال؛ والخُلُق، والقدر، والمال، والدين، والنقاء، والكفاية، والكثير الكافي، والتوسع، وطلب الأجر الأخروي، والحساب، والكرامة، والتدبير، والنظر في الأمر، والاختبار، وتحسس الخبر وتجسسه، والتعرف، والتطلب، وإنكار

القبيح، والظن[1]، يستخلص من هذا أن بلاغة كلامهم تسري في دمائهم، يتوارثها خلفهم كابر عن كابر، خلقة وطبعا، وأن كلامهم يمتاز بخصائص كثيرة تُعَدّ وتحصى، وهو كلام كاف، مستوفي المعاني، واصل إلى المراد، ليس بهزر ولا نزر، عليه ثوب الكرامة، لا باعث له من رهبة أو رغبة، كلام مثقف، صلب المعجم، عظيم المزية.

وتدور مادة (الرونق) لغة حول: ماء السيف وصفائه، وحسنه، والبريق، والنضرة، واللمعان، والحُسن، وأول الشباب[2]، فرونق السيف دليل إحكام صنعه، وجودة شطبه، وحِدة ظبته، ونفاسة معدنه وزينته، ورونق الحُسن في الوجه الحَسن يجذب العيون؛ لحُسن منظره فيها، ويستميل النفوس؛ لحُسن موقعه منها، واستعارة الرونق لكلام الأعراب أثر عليه من روحهم، وشباب دائم لبلاغته، وسليقة عربية محكمَة، وطبع مُلهَم يصيب بلفظه مواقع الشعور ومكامن الخيال، وينقل الحقائق من الحياة ويلبسها ثوب الدقة والوفاء والجمال.

وأما قوله: (وأحسنه ديباجا) فاستواؤه في الجزالة، والمتانة، والفصاحة، والحسن، والنقاء، والزينة، والتحبير، والتحسين، وحسن النسج والتأليف والتماسك، فلا يتفاوت نمطه.

فالديباج ليس كسوة غرضها الرئيس الوقاية من أذي الحر والقر، ولكنه زينة للابس والناظر، وحسنه لا يُكتفى في معرفته الترتيب والضم

(١) لسان العرب. مادة(حسب).

(٢) السابق. مادة (رنق).

للخيوط طولا وعرضا على طرق شتى حتى تؤلف نسيجا، ولكن لابد أن يُعرف وجه الدقة في النسج، ويُعلم طريقة ضم الخيوط بعضها إلى بعض، وترتيبها في النسج والغزل تفصيلا، وهذا مما لم ينص عليه ناقدو الكلام، ولكن أوثر عن العرب عنايتها بجودة الألفاظ ورصانتها "كانت العرب ومن تبعها من السلف تجري على عادة في تفخيم اللفظ وجمال المنطق لم تألف غيره"(١)، فاللفظ هو المبين عما في نفس قائله، ولا تتميز المعانى في نفس قائلها وتعرف حتى يفصح عنها؛ ولذلك وصف اللفظ بالرونق وحسن الديباجة؛ لأن سلامته تتبع سلامة الطبع، ولكن القاضي "الجرجاني" جعل البداوة تحدث بعض التعقيد والتوعر والصلابة والشدة(٢)؛ ولذلك احترس "ابن عبد ربه" بقوله: (وأقله كُلفة، وأوضحه طريقة) لئلا يتوهم أن كلامهم بدوي وحشي، وأن مسلكهم التوعر والتصنع والغصب والتعمية والتكلف- وهو مما ينفر النفس ويخلق الديباجة- ويثبت أنه كلام كلما زدته فكرا زادك معنى، كأشعة الضوء التي تنبعث فتعم، وعلى هذا فوصف الكلام بالديباج أمر يرجع إلى لفظه ونمطه، يقول "ابن سلام" في نقد "النابغة": "...وَقَالَ من احْتج للنابغة كَانَ أحْسنهم ديباجة شعر، وَأَكْثَرهم رونق كَلَام، وأجزلهم بَيْتا، كَأَن شعره كَلَام

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه. علي بن عبد العزيز الجرجاني، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، ص٢٤، المكتبة العصرية. صيدا، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
(٢) ينظر السابق ص٢٥

لَيْسَ فِيهِ تكلّف"[١]، ووصف د."عبد الله الطيب" حسن الديباج بأنها طواعية الألفاظ للإيقاع الجهير، يقول:"والنقاد مما يصفون الشعر أحياناً كثيرة بصفاء الديباجة وجودتها، يعنون بذلك أن إيقاعها ذو رنين جهير منسجم وألفاظها مطيعة لذلك الإيقاع منسابة معه وهو مع ذلك متلاحم في أسرٍ مع قوته ذي مرونة"[٢]، فالكلام صناعة، يرسم صورا نفسية لمعان قائمة في النفس، تجيش بها الصدور، فتقذفها على الألسنة ألفاظا تعبر عن هذه الصور وتصفها؛ ولذلك فالديباج وصف يختص بالمظهر الخارجي للكلام المتمثل في الألفاظ، والألفاظ كائنات حية، روحها الإيقاع الذي يبرزها في معرض حسن، تروق له الأسماع، وتهتز له الأفئدة "... لكلام هؤلاء ومن تقدّم من الشعراء، ديباج الكلام الخسروانيّ، يزيد على القدم جدّة وحسنا، فإذا جاءك الكلام الزيّن بالبديع، جاءك الحرير الصيني المذهب، يبقى على المحادثة في أفواه الرّواة، فإذا كان له رونق صواب، وعته الأسماع، ولذّ في القلوب"[٣]، وتكرار صيغة التفضيل (أشرف، أكثر، أقل، أوضح) مفصح عن السبق، والتفوق، والسمو، والزيادة، والرسوخ في الجودة والحسن، بجزالة اللفظ، وصحة المعنى، وإصابة الوصف.

---

(١) طبقات فحول الشعراء. محمد بن سلام الجمحي، تح: محمود محمد شاكر، ص٥٦، الهيئة العامة لقصور الثقافة. الذخائر ٧٢.د.ت.

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب. عبد الله بن الطيب المجذوب،٧٧٨/٤، ط٢، دار الآثار الإسلامية. وزارة الإعلام الصفاة. الكويت١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

(٣) العقد الفريد ١٦٥/٦

وأما قول "ابن عبد ربه": "وإذ كان مدار الكلام كله عليه، ومنتسبه إليه"، فقد جعل "ابن سلام" أهل البادية حجة في أخذ الشعر(١)، شبه كلام الأعراب بالمدار؛ لأن جميع فنون القول تدور في فلك بيانهم، وتستلهم منهم، وتبتديء إليهم وتنتهي؛ لقوته وجزالته، فهو يجمع أسباب البيان والبراعة ويحوطها؛ ولذلك قال خالد ابن صفوان:" كيف نجاريهم وإنما نحاكيهم؟ أم كيف نسابقهم وإنما نجري بما سبق إلينا من أعراقهم؟"(٢).

(١) ينظر طبقات فحول الشعراء. محمد بن سلام الجمحي، تح: محمود محمد شاكر، ص٤، الهيئة العامة لقصور الثقافة. الذخائر ٧٢.د.ت.

(٢) العقد الفريد ٤١٨/٣

المبحث الثاني
النداء والدعاء

أسلوب النداء في مقام الدعاء له خصيصة تميزه عن مقامات النداء الأخرى، فهو تضرع وعبادة واستغاثة، واستحضار من المخاطب لجلال الألوهية وجمال الربوبية، وخلق جو روحاني يهيئ الفرد للاتصال بخالقه، محاولا أن يفصل نفسه في تلك اللحظات عن لهو الدنيا ومتاعها، وصخبها وشواغلها، متجردا منها، مناديا ربا كريما تخليصا لنفسه من الملهيات، وموقظا في نفسه صوت العبادة، وتنبيها لنفسه من سنة الغفلة والهوى، فالنداء باعث للاتصال بالرب، وتهيئة للداعي لأن يفصح عن رغباته وحاجاته التي لا يلبيها إلا قادر متجرد عن النفعية والهوى، فالأعرابي ينادي؛ لأنه متيقن أنه –تعالى– مجيب، والباعث على النداء هو البوح، والفضفضة، والتنفيس، والانفعال، والإلحاح، والتصميم، والرغبة، والرهبة، والأمل، والتضرع، والعبادة.

ولا يحتاج الداعي في مقام الدعاء إلى أدوات النداء ذات المقاطع المفتوحة مثل: (يا، وأيا، وآ، وآي، وهيا) وأدوات التنبيه (ألا، وأي، وها) التي يُمد فيها الصوت ويُرسل، فهو يدعو سمعيا قريبا، وإذا وجدت أداة النداء يكون ذلك مختصا بنفس الداعي، ومرتبطا بحاله، فهي تفريغ ما بداخله من شحنات وانفعال لشعوره بالفقد والتوجع، أو الاستغاثة، أو الحنين والتذكر، أو اللهفة والشوق، أو الفرح والسرور، أو التعجب والدهشة والحيرة، أو التردد والاستنكار، أوالزجر والوعيد إلى غير ذلك من المقامات التي ترد فيها أدوات النداء مفصحة عن بواطن النفس

ومسالكها، وهنا في مقام الدعاء تكون أداة النداء صلة وقربة، ومناجاة وتضرع، وجهاد نفس وهوى ودنيا، ثقة بالعفو ورجاء المغفرة، إظهارا لعز الربوبية وذل العبودية، وإنكسار النفس، وذوب الكبر، وخشوع القلب والجوارح خاصة أن الأعراب لم يطلبوا الدنيا في دعائهم، ورضوا بالكفاف، كما أن بعض أدعيتهم كانت في الحرم المكي، وفي هذا المكان المقدس تتخلص النفس من أوضارها وتصفو، وتعلم أنها قد تكون هذه اللحظات هي آخر عهدها بالدنيا، فيتجلى الإخلاص اقترانا بمعية الله –عز وجل–، وترسل أسهمة الدعاء مريدة وجهه –تعالى–، سالكة الطريق الموصلة إلى رضاه.

بين النداء والدعاء:

الدعاء لغة : يدور حول معان عدة، جميعها نابع من القول والكلام؛ لطلب محبوب أو دفع مكروه، والمحبوب قد يكون حصول خير للداعي أو نزول شر بغيره، يتحقق بدعوة عليه انتقاما للنفس، وتسكينا لشهوة الغضب؛ ليحصل للنفس سكونها واستقرارها بوقوع الضرر للمدعو عليه، والدعاء: جذب، وميل، واستحضار، وطلب يكون من الداعي بكلام "الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد، وهو: أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك"(١)، والغالب في الدعاء أن يكون في الخير والنفع، والطلب، والمسرات كالدعوة إلى الأعراس والطعام، وكذلك يرد الدعاء في معاني كثيرة كالاستغاثة، والعبادة، والتوحيد، والثناء على الله –

(١) مقاييس اللغة. أبي الحسين أحمد بن فارس، تح: عبد السلام هارون،٢/٢٧٩، دار الفكر١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

تعالى- وتحميده وتمجيده وتنزيهه وتعظيمه، والرغبة، والقصد، والنداء "ودعا الرجل دعوا ودعاء: ناداه، والاسم الدعوة. ودعوت فلانا أي صحت به واستدعيته"(١)، والتسمية، والقول، والإقبال، والإجابة، والسؤال، والاجتماع، والجعل، والاعتزاء، والحث، والتبليغ، والإخبار عن النفس، والتمني، والرأي، والقرابة، والذكر، والجعل، والحلف، والمحاجاة، والاحتياج، والاضطرار، والندب(٢)، والنداء: الصوت مثل الدعاء، والصياح، ورفع الصوت، وبُعد مداه، والجهر لشبهه اللفظي بـ"الصِّياح" و"الهُتاف" "والصُّراخ"؛ تأتي صيغة "فعال" في أشياء تقاربت معانيها فجيء بها على مثال واحد، وفي أشياء بلغت الغاية(٣)، فالنداء مد الصوت ورفع له- ووصف نداء سيدنا "زكريا" -عليه السلام- بالخفاء؛ لأنه إعلان وتصريح عما في نفسه لربه -جلّ شأنه- الذي يعلم السر وأخفى- والدعاء، والإعلام، والغاية، والاجتماع، والدعوة(٤)، فالمعنى الحقيقي العرفي للنداء خطاب لحاضر، وقصدٌ لواحد بعينه، يرفع فيه

(١) لسان العرب. مادة (دعا).

(٢) السابق. مادة (دعا).

(٣) "والأصوات كلها إذا كانت على فعال أتت بضم الفاء نحو "الرُّغاء" و"الدُّعاء"و"البُكاء" والحُداء" و"الصُّراخ" و"النُّباح" و"الهُتاف"، قال: و"الصِّياح" يُضم أوله ويُكسر، وكذلك "النِّداء" يضم أوله ويكسر... "، وكذلك "الهِتاف" و"الهُتاف"، وقد جاء "فِعَال" في أشياء تقاربت معانيها فجيء بها على مثال واحد... وفي أشياء بلغت الغاية". أدب الكاتب. أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تح: محمد محي الدين، ص٣٢٣، ٣٤٦، ٣٤٨ ، دار الطلائع ٢٠٠٩م.

(٤) لسان العرب. مادة (ندى).

الصوت، ثم اشتهر عرفا في الاستعمال وأصبح مجازا في طلب الإقبال، والتنبيه، والإجابة.

النداء يكون لما أهمّ، ويصدر غالبا في القرآن الكريم لذوي الشأن: كنداء الله –تعالى– لأنبيائه نداء تشريف أو تكليف، نداء جدّ للأمر الذي ينادون من أجله، ونداء الرسل –عليهم السلام– لله –جل شأنه–، أو في الأمور العضال كنداء أصحاب النار أصحاب الجنة والعكس، أو في موقف العذاب كنداء أصحاب النار مالكا، أو المباهاة وإعادة الثقة بالنفس كنداء فرعون لقومه، وكذلك يتعين النداء في المواقف التي تتطلب النجاة والاستغاثة والشفاعة والتوسل والاستنجاد؛ لأن فيه قصدا وتخصيصا وإعلانا بالكلام سواء أرُفع الصوت أم كان النداء خفيا.

وقد تحدث البلاغيون في مباحث الإنشاء الطلبي عن "النداء" ولم يذكروا أن الدعاء من المعاني التي تتولد من مستتبعات النداء مع وجود صلة وثيقة بين النداء والدعاء، وتقدم النداء– ملفوظا أو مقدرا– آيات الدعاء، ولكن ذكروا أن الدعاء من المعاني المستتبعة لأسلوب الأمر "وقد تستعمل صيغة الأمر لغيره أي: لغير طلب الفعل استعلاء مما يناسب المقام بحسب القرائن... والدعاء نحو "رب اغفر لي" فإنه طلب للفعل على سبيل التضرع"[1]، نظرا إلى أن الدعاء طلب واستدعاء للفعل؛ فلذلك ذكر في أسلوب الأمر، يقول "الزركشي" رحمه الله –تعالى–:"...النداء:

(١) المطول شرح تلخيص المفتاح.سعد الدين مسعود التفتازاني، تصحيح: عثمان افندي زاده احمد رفعت، ص٢٤٠:٢٤١، المكتبة الأزهرية للتراث١٣٣٠هـ، وقد ذكر "الزركشي" في برهانه أن الدعاء من المعاني التي يستعمل النداء فيه في غير معناه مجازا. البرهان ص٥١٤

وهو طلب إقبال المدعو على الداعي بحرف مخصوص، وإنما يصحب في الأكثر الأمر والنهي"[١]، وحلل شيخنا الأستاذ الدكتور: "محمد أبو موسى" هذه اللفتة تحليلا نفسيا حيث يقول: "ومما يقوى به أسلوب الأمر وقوعه بعد النداء...وأن النداء يصحب الأمر والنهي غالبا وكأنه إعداد النفس لهما"[٢]، فنظر إلى الوظيفة النفسية للأمر في حق الله –تعالى–، فالأمر داعية للآمر أن يطلب، ولما كان مطلوبا من الله –تعالى– وهو لا يعجزه شيء طلب الإنسان منه في زمن وجوده كطلب الحظ من الدنيا، والمنفعة، ورفع البلاء، وطلب في زمن عدمه، فالمؤمن بعالم الغيب والشهادة طلب عدم الخزي يوم البعث، وطلب عدم الجعل في القوم الظالمين، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم، وكل هذا في زمن عدم وجود الآمر قربا وتزلفا إلى الله –تعالى–، وإقرارا بالعبودية له.

وذكر "حازم" –رحمه الله– أن الدعاء من أغراض المخاطبات، ومن ضروب المعاني التي تصف الأحوال المحركة إلى القول على جهة الإمكان والاحتمال، لا على جهة سلب وإيجاب، وجعله قسيم الخبر في الخطاب، يقول:"وهنا معان أُخر، وهي أنحاء المخاطبات مثل أن يكون المتكلم مخبرا أو مستخبرا، آمرا أو ناهيا، داعيا أو مجيبا"[٣]، فجعل الدعاء من أقسام الإنشاء؛ لأنه استدعاء أمر غير حاصل ليحصل، وقرن

(١) البرهان في علوم القرآن. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تح: أبي الفضل الدمياطي، ص٥١٣، دار الحديث ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

(٢) دلالات التراكيب دراسة بلاغية. د. محمد أبو موسى، ص٢٥٧، ٢٦٣، ط٢، مكتبة وهبة ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

(٣) منهاج البلغاء وسراج الأدباء. حازم بن محمد القرطاجني، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، ص١٤، ط٣، دار الغرب الإسلامي. بيروت ١٩٨٦م.

الدعاء بالإجابة امتثالا لقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠] ﴾، فالدعاء نداء وطلب، "ويطلق على عبادة الله على طريق الكناية؛ لأن العبادة لا تخلو من دعاء المعبود بنداء تعظيمه والتضرع إليه"(١)، والاستجابة معلقة على قبول الطلب (الدعاء)، ومشيئة الله –تعالى–، وعلى سماع المنادَى ليتحقق الإقبال في جانب نداء البشر بعضهم بعضا، وكذلك فعل "العلوي" –رحمه الله– فقسم الطلب إلى أمر ونهي واستفهام وتمن وعرض ودعاء ونداء(٢)، ولم يتعرض لذكر العرض والدعاء بالشرح والتقسيم كما فعل مع باقي الأقسام.

والنداء تمهيد وتوطئة للدعاء؛ ولذلك يسبقه، والنداء يعم العاقل وغيره، فالنداء أعم والدعاء أخص، والدعاء يختص بالقريب: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦]، فالمسألة مسألة مناجاة للقريب لا مسألة نداء البعيد للبعيد، كما أن الداعي إلى الطعام يوجه الدعوة بنفسه، فيكون فيها قرب وتكون خاصة بالمدعو دون غيره، أما النداء فيكون عاما، فالمقصد منه الطلب سواء أكان إقبالا حقيقيا أو مجازيا، والمقصود به الإجابة أو الاستغاثة أو التعجب أو غير ذلك، كما أن النداء قد يكون برفع الصوت، والدعاء يكون تضرعا وخفية.

---

(١) التحرير والتنوير. محمد الطاهر ابن عاشور، ١٨٢/٢٤، دار سحنون للنشر والتوزيع، توزيع مكتبة مصر. د. ت.

(٢) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. يحيى بن حمزة العلوي، تح: د. عبد الحميد هنداوي، ١٥٥/٣، المكتبة العصرية ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

المبحث الثالث

التفسير النفسي لبلاغة أسلوب النداء

أولا: التفسير النفسي للنداء بـ"اللهم":

لم يكن "ابن عبد ربه" جامعا لعيون الأخبار من الأدب والشعر فقط بل كان شاعرا ذواقة، يتأنق في اختيار ثمراته، فلا يقف إلا على الحسن، ولا يختار إلا الجيد، ومن حذقه وتجويده جعل "الدعاء" في أول كتاب "كلام الأعراب"، فهو من حسن الافتتاح وجيده؛ لقول "غيلان":" إذا أردت أن تسمع الدعاء فاسمع دعاء الأعراب"(١)، فالابتداء به ذكر لفضائلهم، ونشر لمحامدهم، وتأخير لذكر غلظتهم، وجفائهم، وهزلهم، وتخلفهم عن رسول الله – ﷺ–، وهذا طرف من دعاء أملاه أعرابي، يقول: "أملى علينا أعرابي يقال له مرثد: اللهم اغفر لي والجلد بارد، والنفس رطبة، واللسان منطلق، والصحف منشورة، والأقلام جارية، والتوبة مقبولة، والأنفس مريحة، والتضرع مرجوّ، قبل أزّ العروق، وحشك النفس، وعلز الصدر، وتزيّل الأوصال، ونصول الشعر، وتحيّف التراب؛ وقبل أن لا أقدر على استغفارك حتى يفنى الأجل، وينقطع العمل. أعنّي على الموت وكربته، وعلى القبر وغمّته، وعلى الميزان وخفّته، وعلى الصراط وزلّته، وعلى يوم القيامة وروعته ... اللهم إني أسألك نجاح الأمل عند انقطاع الأجل، اللهم اجعل خير عملي ما وَلِيَ أجلي؛ اللهم اجعلني من الذين إذا أعطيتهم شكروا، وإذا ابتليتهم صبروا... اللهم لا

(١) العقد الفريد ٤١٨/٣

تحقق عليّ العذاب، ولا تقطع بي الأسباب.... اللهم لا تخيبني وأنا أرجوك... اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك، ومن الذل إلا لك"(١)

ليس الدعاء لهوا أو مناجاة، بل ضرورة ملحة من ضرورات النفس الإنسانية في حوارها الشاق المستمر مع صعوبات الحياة ودروبها، فابتدأ الأعرابي نداءه وتضرعه باسم خاص بذاته –تعالى–(اللهم)، وهو اسم جامع لصفات الجلال، لا يشركه فيه غيره، ولا يُدْعَى به أحد سواه؛ لأن ما يطلبه من دعاء لا يستطيع بشر الوفاء به، فلذلك وُجه النداء إليه – تعالى– باسمه الجليل، متحاشيا ذكر أداة النداء (يا) لأنه أنسب لمقام الدعاء، والخضوع، والتضرع، والتذلل، والتلطف، والتأدب مع الذات الإلهية، والتنزيه، قال تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ [يونس:١٠] فـ"اللهم" مقامها في الأية الكريمة التنزيه والتسبيح، والتعظيم والتفخيم، فكأن الداعي دعا الله –تعالى– بأسمائه الحسنى وصفاته كلها، فـ"لام" اسم الجلالة تُفخَّم وجوبا غير مسبوقة بحرف إطباق، كما أن الميم زيدت للتعظيم والتفخيم كزيادتها في "زرقم" لشديد الزرقة و"ابنم" في الابن(٢) "وإذا علم هذا من شأن الميم فهم ألحقوها في آخر هذا الاسم الذي يسأل الله سبحانه به في كل حاجة وكل حال إيذانا بجميع أسمائه وصفاته

(٢) السابق٣/٤١٩

(٢) جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام. محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، تح: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، ص١٤٤، ١٤٧، ط٢، دار العروبة – الكويت ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

فالسائل إذا قال: اللهم إني أسألك كأنه قال: أدعو الله الذي لـــه الأســماء الحسنى والصفات العلى بأسمائه وصفاته، فأتى بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم إيذانا بسؤاله –تعالى– بأسمائه كلها..... فالداعي مندوب إلى أن يسأل الله –تعالى– بأسمائه وصفاته كما في الاسم الأعظم... مَن قال اللهم: فقد دعا الله بجميع أسمائه"(١)، إن دعاء الأعرابي يفصح عــن عبد متجرد من زخرف الدنيا وزينتها، يفصح عن طبيعة الحيــاة التــي يحياها، حياة ترتبط بالزمان دون المكان، فما كان له بيت ثابت يقيم فيه؛ لانتجاعه مواقع العشب والكلأ، فعاطفة ارتباطه بالمكان هشــة، ولكــن عاطفة ارتباطه بالزمن قوية؛ فهو دائم الترحال، يحمل في قلبه وذاكرتــه ما تموج به نفسه من فن قولي ينفث به عن طاقته الروحية، وما يجــيش في صدره، وكان الإيمان بالغيب (البعث، واليوم الآخر، والحساب) مــن الأمور التي جادل فيها الكافرون رسول الله –ﷺ – ومــاروا، وأفصــح دعاء الأعرابي عن تأكيد الإيمان بها، وثبات اليقــين بــالله –تعــالى–، وصدق ما عاهدوه عليه، ومحاسبة النفس قبل حسابها، فلهجه بـــ"اللهم" مكررا إياها سبع مرات له مساس بدخيل نفسه، فلم يأت اللفــظ مكــررا جزافا– خاصة أنه يُملي ليُنقَل عنه – ولكن لتكرار اللفظ دافــع داخلــي وجداني، فاختار لفظا اطمأن إليه وكرره، فلم ينــاد بـــ"رب"، ولكنــه استحضر مقام العظمة والجبروت في موقف البعث والحساب فتضــرع بـــ"اللهم" معبرا عن القيم الروحية التي يؤمن بها... حين طلب الأعرابي

(١) جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، ص١٥٣: ١٥٤

المغفرة استشعر في نفسه الحضرة الإلهية بجلالها، واستشعر التنكيس الإنساني للخلق بالتعمير في الحياة الدنيا، فقابل بين حالي الإنسان وقت الحياة ووقت الاحتضار، يقول: "اغفر لي والجلد بارد(١)، والنفس رطبة، واللسان منطلق، والصحف منشورة، والأقلام جارية، والتوبة مقبولة، والأنفس مريحة، والتضرع مرجوّ، قبل أزّ(٢) العروق، وحشك(٣) النفس، وعلز(٤) الصدر، وتزيّل(٥) الأوصال، ونصول(٦) الشعر، وتحيّف(٧) التراب" عُدّى الفعل (اغفر) بحرف الجر(لي)، وحذف المفعول به الثاني، فلم يحدد ذنبا أو سيئة أو جريرة ارتكبت بل طلب المغفرة، أي: سترها

---

(١) الجلد أقرب إلى الاعتدال، فإنه يكاد لا ينفعل عن ماء ممزوج بالتساوي نصفه جمد ونصفه ماء مغلي، ويكاد يتعادل فيه تسخين العروق والدم لتبريد العصب، وهو عضو لا حسّ له إلا أن يكون لحيما، فإذا خالطه اللحم والعصب كان حساسا، ويشبه أن لا يكون سطحه الظاهر حساسا؛ لأنه عري عن العصب، وقد جعله الشيخ الرئيس رحمه الله العضو الثالث عشر في أبرد ما في البدن. ينظر الشفاء. الطبيعيات. ابن سينا، راجعه: د.إبراهيم مدكور، تح: د. عبد الحليم منتصر وغيره، ص١٩٦،٤٧، ١٩٨، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجصي.قم. إيران ١٤٠٦هـق.

(٣) أز: صوت الغليان وجيشان الجوف. لسان العرب. مادة (أزز).

(٤) حشك: اجتهاد النفس في النزع الشديد.السابق. مادة (حشك).

(٥) علز: القلق والكرب والضيق الذي يكون عند الموت. السابق. مادة (علز).

(٦) تزيل: التفرق وذهاب الحركة. السابق. مادة (زيل).

(٧) نصول الشعر: زال عنه خضابه أو لونه. لسان العرب. مادة (نصل).

(٨) تحيف: أكل تراب القبر الجثة من جوانبها ونواحيها. السابق. مادة (حيف).

وعدم المؤاخذة بها؛ لتلازم المغفرة والذنوب ذكرا أوتقديرا، وما كان كذلك يطوى ذكره في الحديث، فالحذف يُغني عن تفصيل متعذر متعدد متكرر، وهو دأب الداعي بالمغفرة دائما ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ [البقرة:٢٨٦] ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ [المؤمنون:١٠٩]؛ لعدم استحباب الجهر والمكاشفة بما يثلم النفس ويعيبها، والأعرابي في ذلك مفكر واع بنفسه يعلم أن من الحكمة أن لا يقدح فيها، وأن ينسب إليها الخبث والسوء، وكأن النفس الإنسانية تأنف أن تنسب إلى نفسها فعل الذنوب، وتجافي اتصال ذكرها بها؛ ولذلك لم يذكرها على عكس التصريح بأفعال الجناية والخيبة في أسلوب النهي، فصرح بذكرها؛ لأنها منفية عنه "اللهم لا تخيبني وأنا أرجوك ولا تعذبني وأنا أدعوك"، وعندما طلب تغيير عمله ونقله من حال غير مرضية إلى حال تُحمد قال: "اللهم اجعل خير عملي ما ولي من أجلي" فلم يذكر فعلا مخالفا ارتكبه أو سيئة اكتسبها، بل سلط محور تفكيره، وصب اهتمامه على نفاذ المغفرة[1] من المولى – جل وعلا– إليه، وحصولها له، وتأثيرها فيه بالاستقامة والتقى قبل الفوت، ولم يخصص أو ينص على صغيرة أو كبيرة بل عمم وأبهم

(١) ينظر باب "أصناف الفعل" (المتعدي وغير المتعدي) حيث يقول "ابن يعيش": "وأمّا ما يتعدّي إلى مفعولَيْن، فهو على ضربين: أحدهما ما يتعدّي إلى مفعولَين، ويكون المفعول الأول منهما غير الثاني ... فأما الضرب الأوّل، فهي أفعال مَؤثرة تنفذ من الفاعل إلى المفعول، وتؤثر فيه... ومن هذا الباب ما كان يتعدّي إلى مفعولين، إلّا أنه يتعدّي إلى الأول بنفسه من غير واسطة، وإلى الثاني بواسطة حرف الجر". شرح المفصل ٢٩٧/٤

بحذف المفعول الثاني "ذنوبي"؛ للحرص والعناية على إثبات وقوع المغفرة له، وشمولها جميع ذنوبه، فتَسلم المغفرة بكليَّتها له، فأطلق المغفرة، وقيّد الدعاء منتقلا إلى ذكر أحوال حددها يُحب أن تقع المغفرة له فيها.

فابتدأ بإثبات طلب المغفرة والتوبة، ثم استأنف بـ"الواو"؛ فعطف الجمل الخبرية الحالية (والجلد..) على الجملة الإنشائية (اللهم اغفر لي) لضم الجمل الاسمية الحالية المتحققة وجودا، الفانية مستقبلا، إلى حدوث المغفرة التي لا يُعلم وقتها، فالداعي ذو رغبة مُلِّحة، وتعلق، وتشبث بوقوع المغفرة وقت حياته، وقَصَدَ قبولها حال صحته قبل احتضاره وغلق باب توبته؛ فلذا عطف الجمل الخبرية التي تمثل غرضا واحدا وهو الصحة والحياة على الإنشاء وهو المغفرة، وعطف الجمل المتكاثرة الواصفة حال الإنسان على المغفرة المفردة تنويه إلى أن نعم الله – تعالى– على العبد كثيرة يصعب إحصاؤها، وتتكاثر معها ذنوبه غفلة وسهوا إلا أن الله –تعالى– يغفرها جميعا، كما أن المغفرة وسيعة عظيمة، وأن الإنسان مهما تقلبت أحواله وشؤونه في الحياة الدنيا فهو طالب للمغفرة، فقيد المغفرة وربطها بحال الصحة والحياة، ودخول الواو إيذان أن هناك أمرين: مغفرة مرجوة تطمئن نفس الداعي، وهيئة متقررة في نفسه يحبُّ أن يكون عليها وقت المغفرة، والواو أفادت اجتماع الأمرين معا، وقد اعترضت الجمل الحالية بين الإنشاء (اللهم اغفر لي) والقيد (الظرف) في قول الأعرابي: " اللهم اغفر لي ... قبل أزّ العروق،

وحشك النفس، وعلز الصدر، وتزيّل الأوصال، ونصول الشعر، وتحيّف التراب؛ وقبل أن لا أقدر على استغفارك حتى يفنى الأجل، وينقطع العمل." لتمكين الانفعال النفسي للداعي، وهو الطمع في حدوث المغفرة حال الصحة والحياة، وترقبه وانتظاره، وتقويته في نفس سامعه(١)، فلما ذكر ما يُرَّغِب في الحياة من اكتمال الصحة، وإراحة النَّفَس، وسكون النَّفْس، وانطلاق اللسان، شفع بما يُرهّب حثا على الإسراع إلى المغفرة، والتزلف إلى الصالحات، والتثبيط عن السيئات؛ ولذلك عدّد الأعرابي مشاهد انتزاع الروح والاحتضار وعلامتهما، فسلط عقله على ما تحتويه النفس البشرية الغائبة عن العيان وآثارها الظاهرة في البدن وقت الاحتضار، فالعروق النابتة من القلب التي خلقت لترويح القلب ونفض البخار الدخاني عنه، وتوزيع الدم على أعضاء البدن بحركاتها الانبساطية والانقباضية(٢) تأز، فاستحالت حركة الدم وبرودته في العروق إلى غليان وجيشان، والنفس تنازع من كل عرق من العروق، وعصب من الأعصاب "وقد جذب منه كل عرق على حياله فالألم منتشر في داخله وخارجه"(٣)، ويُسمع له خوار وغرغرة من الحلق والصدر عناء من كرب الموت وألمه وشدته، مع عدم القدرة على الحركة تخفيفا للألم؛ لأن

(١) ينظر (معرفة كون اللفظ والتركيب أحسن وأفصح). البرهان في علوم القرآن، ص٢١٩

(٢) الشفاء ص ١٢

(٣) إحياء علوم الدين. أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، ص١٨٢٥، ط١، دار ابن حزم ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

النزع هجم على الأوصال ففرقها وأذهب حركتها، وأخر قوله: (ونصول الشعر) مع أنه متقدم على ما قبله في الظهور؛ تأكيدا على وجوب حصول التوبة ووقوعها قبل التقدم في السن، فالأعراض المتقدمة (الأز والحشك والعلز والتزيل) تحدث لكل ميت، ولكن نفض الشعر لونه، واشتعاله شيبا لا يكون إلا للمتقدم في السن في أغلب الأحوال، فيَهِن العظم، ويشيب الرأس، وتخور القوى، فيأتي الموت فيضاعف على هذه النفس الضعيفة الواهنة الآلام.

إن الأعرابي هيأ للتحول النفسي للانتقال إلى الدار الآخرة بالدعاء بالمغفرة، ثم واجه الموت ذاتيا بذكر كربته وغُمّته واستعراض موقف الاحتضار بَدَنِيا وما يترتب عليه "وقبل أن لا أقدر على استغفارك حتى يفنى الأجل، وينقطع العمل" فخشع قلبه، وخارت قوته؛ فانتقل إلى تجديد العهد بالدعاء فكرر النداء بـ"اللهم" داعيا راجيا "اللهم إني أسألك نجاح الأمل[1] عند انقطاع الأجل، اللهم اجعل خير عملي ما وَلِيَ أجلي...اللهم اجعلني من الذين إذا أعطيتهم شكروا، وإذا ابتليتهم صبروا" ولم يقتصر على ذكره أولا؛ لأن الله – عز وجل– هو المختص بتحقيق ما يأتي بعد "اللهم"، وتتحقق خصوصيته من ندائه باسمه الجليل، وإسناد الأفعال – تعالى– إليه إسنادا جديدا، فالسؤال غير الجعل، فاستخدم فعل الجعل

(١) ذكر محققو العقد الفريد أن "الأمل"ذكر بدلا منها "العمل" في بعض الأصول، وهو أنسب وأليق بالمعنى . العقد الفريد ٣ /٤١٩

مرتين؛ لأنه "تغيير بإيجاد الأثر، والنقل"[1]، فالداعي راج، آمل، طامع، موقن؛ ولذلك طلب من مولاه –تعالى جدّه– تبديل حاله ليكون خير عمله خواتمه، ونقله وتصييره من حال الفرح إلى الشكر في العطاء، ومن حال السخط إلى الصبر في البلاء، ومن حال الغفلة إلى حال الذكر بالتذكير، ولما كانت هذه الأحوال توفيقا من الله –تعالى– لعباده ناسب ذلك أن يتوجه الدعاء والنداء إليه –تعالى– بها، وأن يكون الدعاء جعلا وتحولا نفسيا، ولم يتبق بعد ذلك إلا بذل الجهد والمجاهدة، فلا قدرة للأعرابي على تحري وقت اقتراب أجله ليكثر من الصالحات، ولا مقدرة له على أن يقابل البلاء بالصبر، وقد ينسى من غبطته بالعطاء أن يشكر؛ لذا كان الدعاء بالجعل مناسبا لطلبه، أما السؤال فلا يكون جعلا وتحويلا، أو جدالا واستثباتا واستخبارا بل هو دعاء، قال تعالى: ﴿ **قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا** ﴾ [البقرة:٦٩] أي: سله، وعبر بالمسألة دون الدعاء؛ لأن السائل حريص على الإجابة، راغب في حصول طلبه، كما أن "المسألة يقارنها الخضوع والاستكانة"[2] وهو مناسب لحال الداعي وما يكون منه من رفق في الكلام وتلطف، ثم ينتقل الدعاء من المناجاة والتضرع إلى الخوف والرهبة بذكر العذاب، فترتفع نبرة الضراعة،

(١) ينظر الفروق اللغوية. أبي هلال العسكري، تح: محمد إبراهيم سليم، ص١٣٦، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع. القاهرة، د.ت، والوجوه والنظائر. أبي هلال العسكري، تح: محمد عثمان، ص١٥٩، ط١، مكتبة الثقافة الدينية ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

(٢) الفروق اللغوية ص٣٧

يقول: "اللهم لا تحقق عليّ العذاب، ولا تقطع بيّ الأسباب.... اللهم لا تخيبني وأنا أرجوك، ولا تعذبني وأنا أدعوك" بوّاحة بالتقصير في جنب الله –تعالى– مع الندم على ما كان، فلا جهر بمعصية بل محاسبة للنفس، وإشفاقا عليها، وخوفا ممزوجا بالرجاء، وهذا من سنن الفطرة الإنسانية السوية التي تخطيء فتعتذر، وتذل للحق فتذعن، وتفقه فتعقل، ولا تترخص في زجره– تعالى– ووعيده، ولا تسمح للأهواء أن تتحكم فيها، فتجيء بها علة وتذهب بها علة، فتصدير الدعاء بـ"اللهم" يشير إلى الحاجة إلى الاستجابة، يليها حرف النهي "لا"، فيتحرك المعنى من الإثبات إلى الرفض المباشر لما تتسلط عليه الأفعال وهو (التحقيق، والقطع، والخيبة، والعذاب)، مع حضور المفعول به ضمير التكلم (الياء) حضورا مكثفا مكررا؛ ليفصح عن ضعف الذات البشرية وعجزها، فهي في جميع أحوالها لا تئل إلا إلى الله –تعالى–، إن حضور الذات المتكلمة في موقع المفعول به له فاعلية انتشارية في توجيه المعنى وإنتاجه، حيث شكل هذا الحضور حصار النفس الإنسانية في جميع أحوالها، وسد جميع المنافذ عليها لتدخل تحت سيطرة الذات الإلهية، فتتوجه إليه بالدعاء والتضرع والمناجاة، ولذلك يبرز ضمير المتكلم المنفصل (أنا) (أنا أرجوك، .. وأنا أدعوك) متصدرا الجملة الحالية ليبرز هيئة هذا الأعرابي الذي تقوقع في عالمه الداخلي تاركا عالمه الخارجي الذي يعج بالأصوات والمفارقات؛ لينصت إلى ما تعج به نفسه من مشاعر الخوف والرجاء؛ ولذلك هو دائم الرجاء، مستمر في الدعاء، واعتمدت المناجاة

على الجمل القصيرة المتتابعة الموصولة التي يبرز في قصرها ووصلها شيء من الإيقاع، ثم ينتقل نقلة مفاجئة بعد الحمد إلى التضرع والتذلل"...اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك، ومن الذل إلا لك" تكررت "اللهم" في مفتتح تنقلات الأعرابي بين المعاني الجزئية الجديدة، فكانت رابطا صوتيا ودلاليا، يؤكد على التوجه إلى الله –تعالى– في جميع الأمور، وتقرير ذلك في الأذهان، وتنبيهها إليه، لتكشف حضور الذات الإلهية صراحة "اللهم"، أو مضمرة عبر الضمائر المستترة (تخيبني، تعذبني) والظاهرة (بك، إليك، لك)، فلا تستطيع نفس الداعي اليقظة الحذرة أن تنسي ذكره، وتخفيه، وتدعه يلزم ضمير النفس.

وينتقل الدعاء من مقام الإملاء إلى مقام الطواف في الكعبة المقدسة، حيث يقول الأعرابي: " اللهم إنا أطعناك في أحب الأشياء إليك، شهادة أن لا إله إلا أنت وحدك، لا شريك لك، ولم نعصِك في أبغض الأشياء إليك: الشرك بك؛ فاغفر لي ما بين ذلك؛ اللهم إنك آنس المؤنسين لأوليائك، وخير المعينين للمتوكلين عليك"[1] ورد النداء بـ"اللهم" في مقام الرجاء، وهو مقام حبٌّ وطمع، فلم يطلب الأعرابي شيئا لدنياه، بل استشعر جلال الذات الإلهية في حضرة المكان المقدس، وما يصاحبه من وجل القلب، وخشوع النفس، واستحضار النقص البشري، وضعف المُنّة، وفي مقابل هذا تَصلّب العبارة وتقوى دون مواربة أو تورية، فيُجمل بذكر الطاعة، ثم يفصل بأسلوب القصر الدال على توكيد الوحدانية له –جل وعلا–، وإفراده بها، ثم يجمل بنفي المعصية، ويفصل بذكر نفي الشرك، فنفذ مما

(١) العقد الفريد ٣/٤٢٠

هو ثابت: وهو مقام التوحيد ونفي الإشراك إلى ما هو منتظر محبوب وهو المغفرة التي يتعلق بذكرها ارتياح في القلب، وبهجة في النفس، وتأخر طلب المغفرة عن النداء؛ لأجل حصول أسباب المغفرة وهي التوحيد، فرجاء الأعرابي المغفرة محصورا بين ضدين الوحدانية والشرك، وطلبه إياها انتظارا لمحبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله ومغفرته، وهو رجاء راغب يرافقه خوفُ راهب؛ فيترقى المقام إلى ذكر ما يترتب على التوحيد وهو التوكل، وهو مقام وُسِم بمحبة الله –جل وعلا–؛ ولذلك كرر نداءه بـ(اللهم)؛ ليذهب خوف نفسه ووحشتها، فأداة النداء هنا ليست وصلة ممهدة لأمر أو تهيئة له، بل هي توكيد وقَسَم(١)

(١) استفيد هذا المعنى من قول السائل لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– "إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي المَسْأَلَةِ، فَلَا تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ؟"، وتكرار قَسم الرجل" أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ"، وتكرار جواب رسول الله – صلى الله عليه وسلم– بما يقتضيه مقام السائل المتثبت "اللهم نعم". " حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، قَالَ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ سَعِيدٍ هُوَ المَقْبُرِيُّ، عَنْ شَرِيكِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَمِرٍ، أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، يَقُولُ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِي المَسْجِدِ، دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ، فَأَنَاخَهُ فِي المَسْجِدِ ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ وَالنَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ، فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الأَبْيَضُ المُتَّكِئُ. فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: يَا ابْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «قَدْ أَجَبْتُكَ». فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي المَسْأَلَةِ، فَلَا تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ؟ فَقَالَ: «سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ» فَقَالَ: أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ، آللَّهُ= =أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ؟ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ؟ قَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ؟ قَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ

بدليل ردفها بأدوات التوكيد " اللهم إنك.."، وقد وردت أيضا في مقام المناجاة والتضرع عشية عرفة "اللهم إن هذه عشية من عشايا محبتك، وأحد أيام زلفتك، يأمل فيها من لجأ إليك من خلقك، لا يشرك بك شيئا ....ارحم صوت حزين دعاك بزفير وشهيق....ثم بسط كلتا يديه إلى السماء، وقال: اللهم إن كنت بسطت يدي إليك راغبا، فطالما كفيتنيه؛ ساهيا بنعمتك التي تظاهرت عليّ عند الغفلة، فلا أيأس منها عند التوبة"[1] اختيار الداعي(الحاج) لـ"اللهم" وعي بما يحققه هذا النداء من جلال يناسب مقام الحج الأكبر، وثناء عليه سبحانه وتعالى-، وتزلف إلى الرضا والقبول، وتعرض إلى فيوضات الرحمات والمغفرة، واستعطاف، وإشهاد الله -عز وجل- على الطاعة وفعل القربات، ولما كان مقام الجلال يباين غيره وصل الكلامين بـ"إن" منخلعا عن المكان فلم يحدده، بل صب جل اهتمامه على الزمن الذي يتفلت، فحاول كبحه بدعائه ومناجاته التي أشبعت الظمأ النفسي إلى البقاء أطول فترة ممكنة في هذه العشية المباركة متصلا بربه -سبحانه وتعالى-؛ ولذلك ركز على العنصر الزمني (عشية وأحد أيام)، وتعريف العشية باسم الإشارة (هذه عشية)، ليس لفائدة الخبر فيستحضرها في الذهن، ولكن لبيان ملازمة التضرع في حضور يوم عرفة، وهو يوم تتوجه إليه الهمم، وتتطلب القرب فيه، وترجو المغفرة والعفو، فناسب هذا القرب الإشاري (هذه)

الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَنَقْسِمَهَا عَلَى فُقَرَائِنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا= =ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ". صحيح البخاري. ٢٣/١، كتاب (العلم)، باب (ما جاء في العلم. وقوله تعالى: "وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا" (طه: ١١٤)، حديث رقم (٦٣).

(١) العقد الفريد ٤٢١/٣

القرب الروحي والنفسي، وقوة إثارة الوجدان بأن جعل عشية عرفة المتكررة كل عام عشية لها طعم جديد، ومذاق روحي خاص به؛ ليوقظ العقول من سنة الغفلة والتقليد، وينبه في النفوس إحساسا ربانيا يتخطى المكان والزمان، ويسترسل في المناجاة والبوح والتضرع والتذلل لمولاه –جل شأنه– لائذا بـ"اللهم" "اللهم إن كنت بسطت يدي" التي شكلت مرتكزا يستند عليه الداعي عند تنقلاته الروحية من معنى إلى آخر، فابتدأ الأعرابي الدعاء بمناجاة طويلة خُتمت بالطلب، فاستنبهت نفسه، وشعرت بما فرطت في جنبه –تعالى–، واستحيت، فأسرعت إلى الاعتذار، والشكر، والاعتراف بالفضل، وأنابت بقولها: "اللهم إن كنت بسطت يدي إليك راغبا"، فقوى نفسه، وانطلق واثقا في عفوه، فابتدأ بـ"اللهم" مترقبا الصفح عما صدر منه مما لا ينبغى صدوره من مثله، وهذا المعنى دعا به أعرابي في فلاة من الأرض، فقال: "اللهم إن استغفاري إياك مع كثرة ذنوبي للؤم، وإن تركي الاستغفار مع معرفتي بسعة رحمتك لعجز!" "اللهم" إشهاد المتكلم ربه على نفسه، وتكرار التوكيد بـ"إن" مرعي فيه حال المتكلم، والسامع البشري، وربط للكلام، فالكلام حقيقي مباشر، لامداورة فيه ولا تنميق، يُبِين عما يجول في الخاطر من مشاعر وأفكار، وأبانت "اللهم" عن حاجة الأعرابي إلى المغفرة وحرصه عليها، ومع ذلك لم يطلبها (اغفر)، بل أسندها إلى نفسه إسنادا خبريا(إن استغفاري) مثبِتا لنفسه اللؤم مع تحققها إثباتا مؤكدا، فيتبادر إلى ذهن السامع أن الاستغفار لؤم، وأن مغفرة الذنوب التي وعدها الله –سبحانه وتعالى– عباده نقيصة، فيأتي الضد (تركي الاستغفار) ليفيد تصحيح هذا المعنى الذي أثير في النفس بإثبات اللؤم لكثرة استغفار المذنب، وإثبات الضعف، وعدم الحزم،

والتسويف بترك ما يجب فعله بتركه، فيتآلف الضدان في النفس، ويكونان كفاء لحاجتها، وينزعان إلى معنى واحد وهو دوام الاستغفار، وهذا من شأنه أن يطمئن النفس، ويغريها بإدامة الاستغفار، ويوجهها إلى الحياة بنفس راضية مطمئنة.

إن الشعور بالأمن الحقيقي في الحياة الدنيا لا يتحقق بمكان إلا في البيت العتيق، حيث تتجلى فيوضات الرحمة، وتتنزل السكينة، وتنخلع النفس مما يلهيها، منفصلة عن اللهو واللعب، متوجهة إلى الآخرة مظهرا وجوهرا؛ ويتجلى هذا في مقام الإخلاص والتوجه إلى الله –جل شأنه–، وقد كان هذا شأن الأعرابي الذي شُغل عن الوجود، فرفع صوته ملبيا، فاستدعاه "الحجاج"، واستجوبه عن بعض الأمور: منها سؤاله عن أخيه "محمد"، فشهد الأعرابي شهادة حق(١)غير مبال ببطشه، يعصمه إيمانه الحق، وحرمة المكان، فوجم "الحجاج"، وخرج الأعرابي، واقُتفي أثره، فسُمع وهو متعلق بأستار الكعبة، يقول: "بك أعوذ...اللهم عُد بفرجك القريب، ومعروفك القديم، وعادتك الحسنة"(٢)صرف الأعرابي نفسه عن ما دار بينه وبين "الحجاج" بالتوجه إلى الله –تبارك وتعالى–، واستعان عليه به –سبحانه وتعالى–، ولم يخص "الحجاج" بدعاء عليه أو

(١) " قال له الحجاج: فكيف خلفت محمد بن يوسف؟ يعني أخاه، وكان عامله على اليمن؛ قال: خلفته عظيما جسيما خرّاجا ولّاجا. قال: ليس عن هذا سألتك. قال: فعمّ سألتني؟ قال: كيف خلّفت سيرته في الناس؟ قال: خلفته ظلوما غشوما عاصيا للخالق مطيعا للمخلوق! فازورّ من ذلك الحجاج، وقال: ما أقدمك على هذا وقد تعلم مكانه مني؟ فقال له الأعرابي أفتراه بمكانه منك أعزّ مني بمكاني من الله –تبارك وتعالى–، وأنا وافد بيته، وقاض دينه، ومصدّق نبيه صلّى الله عليه وسلم!". العقد الفريد ٤٢٤/٣

(٢) السابق ٤٢٤/٣

استعاذة منه، ولم يطلب فرجا فيقول: "اللهم فرجك" بل طلب دوام العـــود به، فقال: (اللهم عُد) تأدبا مع الرزاق العليم، واعترافا بما كـــان، ومـــا يكون، وما سيكون من فضله –تعالى– وإنعامه، فحاول أن يفصل بـــين الواقع وما ينبغي أن يكون منه في مثل هذا الموقف؛ لقوة شعوره بمراقبة الله –تعالى–، وشدة مؤاخذته وحسابه، ليحرس كل فضيلة مـــن فضـــائل نفسه، ويكبحها عن مخالفة أمره –تعالى–، بالدعاء على "الحجاج" في هذا الموقف، أو النيل القولي منه، فتوجه إلى الله داعيا أن يكفيه سؤال عباده، فختم تضرعه ومناجاته ربه –تعالى– بـــ"اللهم" التي تنبع مـــن الانفعـــال القوي الذي عبر عنه الأعرابي في هدوء، وعرّض بـــ"الحجاج"، فما كان ينبغي أن يصدر منه الاستجواب في هذا الموقف، وأن يخلصـــهم الله – تعالى– منه، فيستبدل به، وقد أعجبت شجاعته "طاووسا"، فأتبعـــه بعـــد مغادرته "الحجاج"، فوجده متعلقا بأستار الكعبة يدعو، ثم ســـمعه وهـــو واقف بعرفة يقول:" اللهم إن كنت لم تقبل حجّي ونصبي وتعبـــي، فـــلا تحرمني أجر المصاب على مصيبته، فلا أعلم مصيبة أعظم ممـــن ورد حوضك وانصرف محروما من وجه رحمتك."[1] أثّر استدعاء "الحجـــاج" للأعرابي في قلبه الحي، وعقله اليقظ، فظل يحدث نفسه وتحدثه، فبـــاح بحديثه إلى خالقه نادما معتذرا، وبث شكواه ووجله إليه تعالى مســـتفتحا بـــ"اللهم" استصغارا لنفسه وعبادته، وهضما لذاته خوفا، مع انبثاق شعاع الرجاء والطمع في العفو، وهي قوة النفس في الطلب[2]، مع عدم الجـــزم

(١) العقد الفريد ٣/٤٢٤.

(٢) النفس لها قوتان: قوة الطلب وقوة الإمساك. الفوائد. ابن القيم الجوزية. تح: خالد بـــن محمد، ص١٨، مكتبة الصفا١٤٢٣هـــ – ٢٠٠٢م.

بتحقق المطلوب انكسارا واستصغارا من الطالب نفسه، وقد أعلمت "إن" عن ما في نفس الأعرابي من ذلك؛ ولذلك لم يستطع أن يطلب الأجر صراحة بل طلبه ضمنا في أسلوب النهي "فلا تحرمني" ذلا وإنكسارا وإشفاقا ورجاء، وإشارة إلى أن عطاءاته -عز وجل- وفيوضاته الحسية والمعنوية مطلوبة له على كل حال، إن لم تكن على الإحسان فبالصبر على الابتلاء.

ويفتح الأعرابي لنفسه عالما آخر من الشعور، عالما يريد أن يشعر فيه بالرضا والطمأنينة، عالما يصبغ فيه تجربته الشعورية أثناء طوافه بالكعبة بذاتيته الشخصية متسربا في خفاء إلى الغاية العظمى للبشرية في الحياة الدنيا، يقول: "... اللهم هب لي حقك، وأرض عني خلقك، اللهم لا تُعْيني بطلب ما لم تقدّره لي، وما قدرته لي فيسّره لي"[1] أسفر الدعاء عن نفس راضية تريد أن تحيا في عالم متسامح، لا صراع فيه ولا كفاح، ولتنعم نفسه بالسكينة والرضا والطمأنينة تضرع بـ"اللهم" لما لهذا الاسم من الجلال والكمال، وهو خليق بأن يكون الطلب بعده (هب) مرادا به السماح والعفو عن الحساب والجزاء، وذكر المفعول (حقك) تأدبا مع الله -جل شأنه-، واعترافا بالتقصير في سداد الحق، والعجز عنه، وجعل سماحه وعفوه -جل وعلا- معبرا ينفذ من خلاله إلى مرتقى حَزِن، فأرأد أن يتبرأ من حقوق الخلق برضاهم عنه، وهي غاية لا تنال؛ ولذلك وكل الأمر إلى الله -جل جلاله- بفعل الطلب (أرض)، ثم طلب بأسلوب النهي (لا تعيني) ضمنا التيسير ورفع المشقة عما يعجز عنه، ولم يطق إحكامه،

(١) العقد الفريد ٣/ ٤٢٤

وأكده بأسلوب الطلب (فيسره لي)، وكرر "اللهم" سابقة نهيه وطلبه؛ للتأكيد على أنه يريد أن يشعر بالسماحة المطلقة، والرفق واليسر في تناول الحياة؛ ولكونها أمورا عسيرة خصها بالطلب في هذا الموقف، وكرر "اللهم" مرتين، مع تكرير حرف الخطاب(حقك، خلقك) تعظيما، يستتبعه تعظيم المطلوبات (رضا الرب –جل وعلا–، وتجاوز الخلق، والانشغال بما قُدر)، مستوعبا جميع التكليفات المنوط بها العبد طول حياته، وهي حقائق عظمى كلية تشمل جميع الجنس البشري، فلم يطلب لنفسه متاعا دنيويا، بل طلب التوفيق فيما قدر له، وانشغل به، وبهذا يتجرد هذا الدعاء عن الذاتية، وينطلق إلى مدى أرحب ليعبر عن القيم المثلى، والحاجات الضرورية التي يجب أن يحرص الإنسان على قضائها، ويدعو الله –عز وجل– بالتوفيق إلى الاهتداء إلى القيام بها على حقها، وقد وارى الأعرابي في دعائه الحاجة إلى الاستغناء بالمال، وهو ما ذكره أعرابي آخر صراحة، في دعائه عند الكعبة حيث يقول: "اللهم إنه لا شرف إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال؛ فأعطني ما أستعين به على شرف الدنيا والآخرة"[1] لم يفض كثيرا في وصف حاجته، ويمهد بمقدمات ترهص لغرضه من الدعاء، بل تبجح متغنيا بما في نفسه مباشرة دون مواربة أو حجاب، فأسفر عن حاجته، متحررا من قيود الزمان والمكان، فلم يحدد نوع الفعال، ولم يقيد عطية بعينها، بل نفذ إلى

(١) العقد الفريد ٣/٤٢٣.

حاجة النفس البشرية التي تشرف بالفعل والعطاء، منتقلا من الدنيا إلى الحياة الأزلية التي يريد أن يلازمه شرفه فيها، فصدق في التعبير عن حاجة نفسه، ونفذ إلى حاجة النفوس البشرية كلها، وتغنى بما في نفسه من انفعالية زائدة بإيقاع سريع- كرر الأدوات (لا وإلا)، والمفردات(شرف، فعال) - يتسق مع وهج إحساسه وانفعاله، ولفظ "شرف" يهز المشاعر والوجدان، فنفذ من خلاله إلى علة طلب العطاء، فلا ضير أن يطلب ويتمنى، فقدمه، وأكده بـ"إن"، وعظمه بضمير الشأن، وقرره بأسلوب القصر التقريري مع أن المقام للدعاء، وأضيف إلى (الدنيا والآخرة) فلا مجال لتخصيص غاية، فأراد الشرف لغاية بعيدة غير معلومة، فشرف الدنيا المقدم وسيلة لغاية أبعد، أوسع وأرحب، وهي شرف الآخرة، شرف بلا ابتداء ولا انتهاء، وهذا المثال هو القول الأوحد في دعاء الأعراب عند الكعبة الذي صرح فيه الداعي بطلب المال، ولم يؤثر فيما سلف من دعائهم طلب المال أو الدنيا، وهذا قد يفسر في ضوء عوامل كثيرة منها: اكتفاؤهم بالقليل، وانصرافهم عن بهرج الدنيا بطبيعة سكنهم البوادي والبراري، وقلة تشتيت الفكر بما يستحدث من أمور دنيوية زائلة، فصفا العقل، وشحذت القرائح مما يشوش ويعطل، فانصرفت النفس عن المتاع، وأقبلت على طلب أسباب الفلاح، وكان هذا شغلها الشاغل عند الكعبة وفي صلاتها بعيدا عنها، فقد سمع "الأصمعي" أعرابيا يقول في صلاته: "اللهم اجعل الموت خير غائب ننتظره، واجعل القبر خير بيت نعمره، واجعل ما بعده خيرا لنا منه؛ اللهم إن عينيّ قد

اغرورقتا دموعا من خشيتك؛ فاغفر الزلة، وعد بحلمك على جهل من لم يرج غيرك"[1] طلب الآخرة والانشغال بمقدماتها هو ما طلبه الأعرابي في صلاته، ومن هنا قيل عن المخلصين الصادقين منهم: "أشبه بالسلف"، لصدق التوجه إلى الله –تعالى–، وعدم الانغماس في الدنيا، فتضرع إلى الله –تعالى– بـ"اللهم" لما فيها من الفخامة والجلالة والعظمة، واختصاصها بالقدرة على تغيير الطبيعة النفسية المتأصلة في نفوس البشر، وهي رهبة الموت، والخوف من القبر، ولكن الدعاء يكون غالبا لطلب محبوب وهكذا دعا الأعرابي، فطلب من ربه –جل وعلا– أن يصرف نفسه عن الدنيا ويشغلها بانتظار محبوب غائب، وهو الموت، ويسعدها بالانتقال إلى بيت جديد تعمره بأفعالها الصالحات، وهو القبر، والقارئ للدعاء يتسلل إليه شعور الأعرابي بالسعادة لطلبه للخير مكررا ثلاث مرات، وتنبسط أساريره للفظة "نعمره"؛ وليمحي تسلل هذا الشعور إلى مخيلة القارئ الذي لم يره وهو يتضرع، قال:" اللهم إن عينيّ قد اغرورقتا.." لم يدع مباشرة بـ"اللهم اغفر الذلة .." كما قال: "اللهم اجعل" بل وسّط "إن" بين "اللهم" والطلب لبيان حاله النفسي حين سأل المغفرة، فحال الداعي قرينة حالية قد لا تشاهد؛ ولذلك نقلها، وقررها في نفسه لئلا تتفلت نفسه، ويصرف تفكيره عن مقام التضرع والخشوع، فمن عادة النفس الإنسانية إذا استفاضت في البكاء أن يعقب ذلك سكون وشرود،

(١) السابق ٣/ ٤٢٣.

وشطح بالخيال في سوانح الخواطر وواردتها، فقيد بالجار والمجرور "من خشيتك" بيانا لعلة الاغرورق، ووقوع الجملة الخبرية "إن عيني" مؤكدة بـ"إن" مع أنها مستعملة في إنشاء الدعاء؛ لكونها خبرا مستعملا في إنشاء التضرع والخشية لظهور لكون المخاطَب عليما بكل شيء، وتأكيد الخبر بإن "مراعاة لأصل الخبرية"(١) تحقيقا لكون الدموع من الخشية، وردا على نفسه أن يتوهم أو يشك أن بكاءه لغير خشية، فالعيون تفيض من الدمع، ولكن سببها قد لا يكون مبررا للشخص نفسه، فغالط نفسه، وطمأنها، فخاطبها بالتأكيد، وهذا التوكيد سنة متبعة في الدعاء لتيقن الداعي من الإجابة، وزيادة احتياط للقبول، ووردت "إن" مرة أخري بعد "اللهم" في الدعاء: سمع "الأصمعي" أعرابيا يقول في دعائه:" اللهم إن ذنوبي إليك لا تضرّك، وإن رحمتك إياي لا تنقصك؛ فاغفر لي مالا يضرك، وهب لي مالا ينقصك"(٢). لم يحدد "الأصمعي" مكان الدعاء، فالدعاء الذي نُوجي به الله –جل وعلا– في مكة ألفاظه أكثر رقة وخشية وتأدبا من لهجة الدعاء هنا، فالأسلوب المؤكد مع توجيه الخطاب لذاته – تعالى– مكررا أكثر جفاء وغلظة، ونفى النقص والضر عن الله –تعالى– غير متسق مع روحانيات الخشية والخضوع، فما كان له أن يذكر مثل هذه الألفاظ في خطاب المناجاة والقرب والطلب، كما أن طريقة صوغ الألفاظ جافة كزة، وجمل الدعاء الخبرية "إن ذنوبي...وإن رحمتك.."

(١) ينظر التحرير والتنوير ٣/٢٣٤.

(٢) العقد الفريد ٣/ ٤٢٣.

مقررة مؤكدة بـــ"إن"، والتوكيد ناظر فيه إلى حال المخاطب الحـــريص المُعنَى بتحقيق الشيء، وهو تقرير مباشر يذكر عاقبة الـــذنوب ومآلهـــا، دون تنميق أو تزويق، ولا يشعر فيه بالتطريب والتمـــويج والاسترســـال الذي يصاحب الدعاء، ولا أثر من حرارة الشعور، ووهج الانفعال، بـــل يتسم الدعاء بالتقريرية والمنطقية، فقدم مقدمات شفعها بنتائج (فاغفر لي، وهب لي)، نمّت عن اتزان نفسي وعقلانية معالجة الأمور، وقصر نفس الداعي، وميله إلى الإيجاز لوضوح هدفه ومبتغاه في نفسه، وورود "إن" بعد "اللهم" مؤذن بأن"اللهم" في حكم الجملة المستقلة الإنشـــائية المؤذنـــة بالدعاء، وتأتي "إن" بعدها لربط الجملة الخبرية المعترضة بالإنشائية، فلا حياة للتركيب بدونها، فكما أن الإنشاء (أسلوب الأمر) يتولد عنه معـــان تفهم من مستتبعات التراكيب، فكذلك التوكيد بإن، فليس التوكيد مرحلـــة أولى في الإخبار، فعطف الإنشاء (فاغفر لي، وهب لي) علـــى الخبـــر (اللهم إن ذنوبي...وإن رحمتك) لأن للتوكيد إثباتا للمعنى في نفس الداعي وقلبه وتقريرا له في ذهنه ما ليس في عدمه لـــ"قصور النفس عن تأديـــة المراد بغير توكيد"[1] فما يختص بالله –تعالى– لا يفتقر إلـــى إثبـــات أو تقرير، ولكن ما يقترفه العبد من ذنوب وآثام يجعله وجلا خائفا، فيسارع إلى التوبة والمغفرة مع الشعور بالتقصير، فالتوكيد دفع لهـــذا الشـــعور، ومنع لليأس أن يتسرب إلى مسالك النفس، وأفضل منه قول أعرابي آخر

(١) البرهان في علوم القرآن ص ٥٤٨.

يدعو لابنه بدعاء يقرب من هذا المعنى إلا أنه أكثر تأدبا، وأرفع ذوقا، يقول: " اللهم إني وهبت له ما قصر فيه من برِّي، فهب له ما قصّر فيه من طاعتك، فإنك أجود وأكرم"(١) السياق المقامي الأم هو الدعاء، ويتولد عنه معان باطنية هي الفقد، والترحم، والرجاء، ولكن الداعى أخذ بعين الاعتبار أمرين:الأول: مقام الألوهية، والثاني: مقام الطلب، وكلاهما يستدعي انتخاب الألفاظ، وظبط النفس، فهو طالب للعفو والمغفرة (فهب له ما قصر فيه من طاعتك)، وشافع يرجو الشفاعة لفلذة كبده متوسلا بحق الأب الذي قرره الله –تعالى–، فتلطف في المناجاة؛ لمعرفته بربه – جل شأنه– فلا يراه إلا محسنا، ومعرفته بنفسه فلا يراها إلا مسيئة أو مقصرة، فعذبت ألفاظه ورشقت، فاستأنس بألفاظ (البر والطاعة)، ومجيء التوكيد مرتين باعتبار حال الداعي، فالتوكيد مبدأ يقينه وتمكينه في نفسه، وهو طالبه، والمقرّ به، وهناك رابط اعتلاقي بين "اللهم" والتوكيد، فالتوكيد يقوم مقام التمهيد المعلل المؤذن بالطلب بعده، فللفظ "اللهم" من المهابة والجلالة ما يستنفر النفس أن تقدم الاعتذار، لعلمها بالتقصير في امتثال الأوامر، فكيف تقصر وتطلب؟!

(١) العقد الفريد ٣/ ٤٢٥.

ثانيا: التفسير النفسي للنداء بـ"يا": يأتي النداء بـ"يا" متوسطا سياق دعاء طويل أملاه أعرابي حسن تخلص وانتقال من معنى إلى آخر في الدعاء، فابتدأ الأعرابي فطلب، وتضرع، وألح، وهذا حقه الذي أوجبه الله –تعالى– له، فابتدأ متضرعا: "اللهم اغفر لي.." ولكنه شعر بالخجل والتقصير؛ لطول الطلب وكثرته، فوضع نفسه على كرسي الاعتراف مقرا بفضل الله –تعالى– عليه، فقال: "يا رب تظاهرت عليّ منك النعم، وتداركت عندك مني الذنوب؛ فلك الحمد على النعم التي تظاهرت، وأستغفرك الذنوب التي تداركت"(١) سبق النداء بسكتة للانتقال من الطلب إلى الشكر، ففي الطباعة المرقومة وضعت نقطة(.) قبل النداء، وهي إرهاص لهذا الانتقال، وتطرية للكلام قبل الانتقال إلى الطلب مرة أخرى، واحتيال سلكه الداعي لجمع طرفي الطلب الذي استهل به الدعاء وختم به، فيتسق النسق، ويستوي الكلام، وتجد النفس أنسا ولينا وسهولة "فيجب أن يعتمد فيه ما يكون محركا للنفس لتستأنف هزة ونشاطا لتلقي ما يرد"(٢)، وهذه السكتة استجماع للنفس، وبعث للخاطر، لمواصلة الدعاء خاصة أن الداعي يملي دعاءه، فنادى بـ"يا" إيقاظا لنفسه وتهيئة لها؛ لأنها ستناجي الكريم –جل وتقدس–، واصطفى اسم الجلالة "رب"؛ لأنه لفظ الدعاء، وهو مصدر الرعاية، الذي رباه بالنعم التي كثرت

(١) العقد الفريد ٤١٩/٣.

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء. حازم القرطاجني، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، ص٣٢١، ط٥، دار الغرب الإسلامي. تونس ٢٠١٤م.

واجتمعت وتعاونت على الإطلاع على فضل الله –تعالى–، فعبر عنها بـ"تظاهرت"، فالنداء هنا شكر على منَّه وعطائه، وإيناس، وتقريب، وترض، ونفي اليأس، وإنهاض النفوس للشكر.

وفي حديث المناجاة تصدر النداء دعاء الأعرابي الحاج، يقول: "يا خير موفود إليه سعى إليه الوفد، قد ضعفت قوّتي، وذهبت منتي، وأتيت إليك بذنوب لا تغسلها الأنهار، ولا تحملها البحار؛ أستجير برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، ثم التفت فقال: أيها المشفَعون، ارحموا من شملته الخطايا، وغمرته البلايا"(١) النداء باعث ومحرك إلى غرض الأعرابي من مناجاته، حيث قرن بأحوال تعتري النفس وهي الضعف والوهن والوجل عند التوبة، ولكنه لم يتحاش عن ذكر ما يستكره، فكرر الجار والمجرور (إليه) فقبض النفس عن الاسترسال في الفهم، وعوق هزة السامع لما يرد بعده "ويحسن ألا تتكرر الألفاظ الواقعة في المطالع على قرب ما أمكنت المندوحة عن ذلك"(٢)، النداء يفصح عن قوة الطلب في رجوعه إلى الله –تعالى– ومرضاته، ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده، ولكن الأعرابي استحى أن يوجه النداء إليه –جل وعلا–، فيتضرع بـ"يا رب" لشعوره بالتقصير في آداء حقه، ولكنه انغمس وسط الوفود يجرجر نفسه الواهنة بما ناءت به من وقر الذنوب، يصارع نفسه، ويغالطها لما اقترفت في انفعالية وشت بها صيغ الجموع المتكررة

(١) العقد الفريد ٣/ ٤٢١.

(٢) منهاج البلغاء ص ٢٨٦.

(ذنوب، البحار، والأنهار) وتكرار حرف النفي (لا)، وما عج به دعاؤه من مآس وغصص وأكدار ومعاناة وعناء للكشف عن شعور قوي، وحركة دائبة ممتدة بالصراع مع الحياة، فلا يقدر على عرك الحياة، وتجنب غرورها، فترنح مثقلا بالذنوب، يعوذ ويلوذ، يطلب ويتشفع، يناجي ويتضرع بنبرة يملأها الأسى والوجل خبأ تحتها إحساسه الفاجع وخوفه من مصيره المجهول متوسلا بذلك إلى الرحمة.

إن رحلة الحج هي الرحلة النموذجية العليا التي يتوارى خلفها الإحساس بالسفر إلى الآخرة حيث المصير المجهول، وانقطاع الأمل والعمل، والشعور بالقلق في مواجهة الحياة، والمأساة والمعاناة، فانطلقت صيحات نفس الأعرابي الحية بالنداء مصورة الحال النفسي، يقول: "أتتك العصاة من البلد السحيق، ودعتك العناة من شعب المضيق؛ رجاء ما لا خلف له من وعدك، ولا انقطاع له من جزيل عطائك؛ أبدت لك وجوهها المصونة، صابرة على وهج السمائم[1]، وبرد الليالي، ترجو بذلك رضوانك يا غفار، يا مستزادا من نعمه، ومستعاذا من نقمه، ارحم صوت حزين دعاك بزفير وشهيق"[2] يتدفق الإيقاع الصوتي للنداء صرخات تنفيس قوية عما في النفس من قلق وحرمان وأسى ونهك وضعف ومعاناة نفسية وبدنية، فالحج سفر بعيد الشقة لنافرين مثقلين بالذنوب والهموم،

(١) سمائم جمع سموم: الريح الحارة وقيل: الباردة ليلا كان أو نهارا. لسان العرب. مادة (سمم).

(٢) العقد الفريد ٣/٤٢١.

وترحات الحياة، وتمرد الطبيعة- يقاسي الأعراب ويلات المفاز، وخشونة العيش وهمومه، وشوائب الحياة، وغواشي القلق- وغزارة تكريره يعمق شعور الأسى الذي يعتلج في النفس ويمكنه، وليس هذا وليد اليأس بمقدار ما هو تعمق في إدراك المعنى الكامن في حركة الحياة، ليخرج الدعاء من أفق الذاتية المحدودة إلى شمول هموم الإنسانية، ومعاناتها في الحياة، فعمم الشعور بالمعاناة مندمجا في الكل، ثم أفرد المرتحل إليه -تقدست أسماؤه- بالخطاب والنداء (يا غفار، يا مستزادا) فناسبه أن يفرد نفسه ويتضاءل في مواجهة العظمة والجلال، فصور هيئته الخاشعة الذليلة المنكسرة "ارحم صوت حزين دعاك بزفير وشهيق" فغرض النداء الدعاء بالرحمة، والانفعال قريب لا مجال فيه للتأمل والتصور.

ويكشف النداء عن نوع من الإحساس العام بالقلق الذي يستشعره الإنسان في مواجهة الحياة، يقول الأعرابي: "وأسألك يا إلهي بوجوب رحمتك، وانقطاع حجّتي، وافتقاري إليك، وغناك عني، أن تغفر لي وترحمني... فأقلّني إليك مغفورا لي، معصوما بطاعتك باقي عمري، يا أرحم الراحمين"(١) أبان الأعرابي عن خوفه وقلقه من مصيره المجهول بأسلوب النداء، واصطفى (يا) دون غيرها من أدوات النداء، وهو ينادي القريب المجيب؛ ليفصح عن ما يعتلج في صدره من خوف ورهبة وقلق، وما يقابله من الشعور بالثقة والطمأنينة في رحمة الله، فعدد مشاعر السلب والشعور بالضعف والتلاشي (انقطاع، افتقار، غناك)، يقابلها

(١) السابق ٣/٤٢٠

مظهر واحد من مظاهر القوة وهو الرحمة (بوجوب رحمتك)، وهو ما ألح على إبرازه دون غيره وخصه بالنداء والتضرع (يا أرحم الراحمين)، فالرحمة هي المعادل والمقابل الذي يمتص كل أفعال الإنسانية السلبية التي تحبط الإنسان وتوجهها توجيها إيجابيا نحو المغفرة والصفح؛ ليتجدد شعور الإنسان بالقبول والرضا عن الحياة الإنسانية، فيتجدد منه التضرع والدعاء والمناجاة في جميع أحواله النفسية.

سرت أشعة النور الكونية ممتزجة بدماء الأعرابي في تجاوب روحاني شارك به الكائنات الأخرى حالة وجدانية عظمى وهي التسبيح بحمده –جل شأنه–، يقول: "يا عماد من لا عماد له، ويا ركن من لا ركن له، ويا مجير الضعفاء، ويا منقذ الهلكى، ويا عظيم الرجاء، أنت الذي سبح لك سواد الليل وبياض النهار، وضوء القمر وشعاع الشمس، وحفيف الشجر ودوي الماء؛ يا محسن، يا مجمل، يا مفضل، لا أسألك الخير بخير هو عندك، ولكني أسألك برحمتك"[1] إن محنة الأعرابي في العيش أكسبته قوة وفكرة، وفي موقف المناجاة تلاشت القوة، وبقيت الفكرة، فانتخب من الصفات ما يتناسب مع حاجته الروحية والنفسية، واعتصم بما فيه منعة له، متحررا من عبودية الهوى والجاه، عالما بمواقع الألفاظ في نفسه، مؤمنا بحقه في حرية الاعتقاد وحرية الإرادة، متوددا إليه –تعالى– بصفاته، فتضرع بـ"يا" دون غيرها وكررها ثماني مرات؛ لأن

(١) العقد الفريد ٣/٤٢٢.

المقام مقام تعظيم وهو من مقامات التكرير، ويكون امتداد الصوت مفرغا لما يعانيه، وتمهيدا لطلب ما يبتغيه، وتذكيرا للنفس، واستثارة للحس والشعور، وإجلالا للمولى –عز وجل– وتعظيما، ورتب الصفات على حسب ترتب معانيها في نفسه، فابتدأ بصفات الغلبة والمنعة (عماد، ركن، مجير، منقذ)، التي تتضمن حال أشبه بالطباق(من لا عماد له، ومن لا ركن له)، بين حالين قوة وضعف– تعالى الله جل شأنه أن نشبهه بأحوال العباد وصفاتهم– ولكنه تقريبا لبشريتنا فالمقارنة بين الأضداد في مستوى اللغة، والتقابل الحقيقي الذي أقامه بين عنصري القوة والضعف، لا يحدث صداما وصراعا، ولكن يتولد عنه الشعور بالعجز والخضوع، وإحسان الظن بالله –تعالى–، وحسن التوكل، والاعتماد عليه، والاعتصام به –عز وجل– إذا حزب أمر مع ما هو معروف عن الأعراب من التوحش(١)، وقلة ثقتهم بغيرهم، وخلق الشجاعة التي أوثر عنهم، ولذا وارى نفسه في صيغ الجمع (الضعفاء والهلكى)، منتقلا من الخاص (نفسه) إلى العام (الجمع)، فالنداء يشير إلى معنى متعاظم، وهو

(١) "...لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض؛ للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة، فقلما تجتمع أهواؤهم. فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة الوازع عن التحاسد والتنافس..وهم مع ذلك أسرع الناس قبولا للحق والهدى؛ لسلامة طباعهم عن عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق". مقدمة ابن خلدون. عبد الرحمن محمد بن خلدون، تح: د. علي عبد الواحد وافي، ٥١٠/٢، ط٢، مكتبة الأسرة ٢٠٠٦م.

اختصاص الإجارة والإنقاذ لجميع الضعفاء والهلكى بالله -تعالى- وتكثيف هذا المعنى في النفوس، وتقليص الذوات البشرية جمعاء لتصبح صرخة النداء صرخة جماعية، واستغاثة مجمعة، فالمضاف إليه (الضعفاء والهلكى) يعادل عالما ضعيفا يجار، وهلكى ينقذون، إنه تعبير عن الضعف والمعاناة التي يتكبدهما الإنسان بوجه عام في الحياة دون تحديد لطبقة معينة، فالواقع أن كل إنسان ضعيف هالك إلا أن يتغمده الله -تعالى- برحمته، فخطاب الجمع هنا يتضمن المفرد، ولكن الأعرابي أزال الفوارق المائزة التي يباين بها الأعراب العرب، واندمج في دائرة العام (الإنسان)، فالإضافة احتفظت لله -عز وجل- بالتخصيصية، وصيغة الجمع سمحت بلون من التعميم الهام الذي يوحد بين أجناس البشر على اختلاف بيئاتهم وأزمنتهم، ويُصيِّر الإنسان فردا في العوالم الكونية المتقابلة التي تسبح بحمده، وأداة النداء المتكررة (يا) بديلا عن فعل متضمن معنى (أستجير بك، وأنقذني، وأرجوك)، مع احتفاظها بخصوصيتها الإنشادية الممهدة للدعاء، فـ"يا" في الدعاء تستدعي ربا يؤتي سؤل الطالب، والعادة أن يتضرع العبد ويسأل مبتدئا بـ"رب"، حاذفا أداة النداء، ولكن المناجي توسل بأداة النداء، ملونا الخطاب بصفاته -تعالى- الحسنى الموجبة للتحبب إليه -تعالى- والتقرب منه، والتعظيم له، وأضيفت بعض الصفات (يا مجير الضعفاء، ويا منقذ الهلكى، ويا عظيم الرجاء)، لتخصيص الله -تعالى- بهذه الصفات، وإثبات شرعية التوجه إليه وحده، ولم تضف الأخرى (يا محسن، يا مجمل، يا مفضل)

لتعذر الإحاطة بإحسانه وإجماله وفضله وتفصيلها، فلا إحسان ولا إجمال ولا فضل على الإطلاق إلا منه –تعالى–.

وقد أظهر النداء قوة إيمان الأعراب، وثقتهم بربهم –جل جلالـــه–، وتفويض الأمر إليه، ولا سيما إذا كان المنادِي امرأة انقطعت بها السبل، وأعيتها الحيلة في صحراء مقفرة "خرجت أعرابية إلى منى فقطـــع بهـــا الطريق، فقالت: "يا رب، أخذت وأعطيت وأنعمت وسلبت، وكـــل ذلـــك منك عدل وفضل والذي عظّم على الخلائق أمرك؛ لا بســـطت لســـاني بمسألة أحد غيرك، ولا بذلت رغبتي إلا إليك يا قرة أعين السائلين"(١) لم يصدر نداء الأعرابية يأسا أو تحسرا أو شكاية، بل حكاية لشيء تجده في نفسها خوفا من قطاع الطرق وجنايتهم، فجاد طبعها وتدفق شعورها بمـــا يعكس ثبات انفعالها، واتزانها النفسي، وإرادة تعرف ما تريد، فلم يقهرها شك، ولم ينتابها جزع؛ ولذلك لجأت إلى بارئها شاكرة متوددة بما يجلب الرضا، فاستعانت بالمقابلة بين الأضداد (أخـــذت وأعطيـــت وأنعمـــت وسلبت) لترسخ في النفس أن جميع الأقدار مرهونة بقضائه –جل وعلا– ، فلقد ناداها المجهول فلبته، وجذبها الخطر فاســـتجابت إليـــه مطمئنـــة راضية، معترفة بما لله –تعالى– على عباده من فضل وإنعام، ولم تتوجه إليه –سبحانه وتعالى– متبرمة ساخطة يائسة كارهة ما صارت إليه وهي تؤدي فريضته، فهي تعلم أن المشكلة التي عرضت لها لم تكن مصادفة، فهتفت استجابة لنداء النفس بنداءات ملأت شعاب نفسها (يا رب، يا قـــرة

(١) العقد الفريد ٤٢٢/٣.

أعين السائلين) في حماسية وثقة عبر عنها أسلوبا القسم والقصر (والذي عظّم على الخلائق أمرك؛ لا بسطت لساني بمسألة أحد غيرك، ولا بذلت رغبتي إلا إليك يا قرة أعين السائلين).

ثالثا: التفسير النفسي لحذف أداة النداء:

إن حذف أداة النداء له دلالة في نفس الداعي، فهو يناجي سميعا قريبا، يبوح له بتقصيره وزلله، ويبثه شكواه وألمه، ويعترف ويقر بما كان من تقصيره وخطئه، وهذا ما يصدر غالبا من المناجِي بصوت خفيض، وتضرع هادئ، فلا يحتاج معه إلى مدّ الصوت بالنداء، وهو أيضا مقام تستر وإخفاء لا يحب أن يطلع أحد عليه، ومقام تضرع وابتهال واستكانة واستغاثة وهو أبعد ما يكون عن الرياء والمباهاة؛ ولذلك يكون البوح بوشوشات، وترنيمات خافتة لا يعلمها إلا العَلَم المختص بالمناجاة، يقول الأعرابي: "إلهي، من أولى بالتقصير والزلل مني وأنت خلقتني، ومن أولى بالعفو منك عني، وعلمك بي محيط ، وقضاؤك فيّ ماض؟ إلهي أطعتك بقوتك والمنة لك، ولم أحسن حين أعطيتني، وعصيتك بعلمك، فتجاوز عن الذنوب التي كتبت علي، وأسألك يا إلهي بوجوب رحمتك، وانقطاع حجّتي، وافتقاري إليك، وغناك عني، أن تغفر لي وترحمني... إلهي أنت شاهدهم وغائبهم، والمطلع على ضمائرهم، وسرّي لك مكشوف، وأنا إليك ملهوف؛ إذا أوحشتني الغربة، آنسني ذكرك؛ وإذا أكبت عليّ الغموم، لجأت إلى الاستجارة بك؛ علما

بأن أزمة الأمور كلها بيدك، ومصدرها عن قضائك"[١] نداء الأعرابي مولاه –تعالى– بـ(إلهي) وعي ذهني بما يجمله هذا الاسم في طياته من صفات الربوبية التي فصّلها دعاؤه، وهي: الخلق، والعفو، والعلم، والقضاء، والقوة، والرزق، والتدبير، والرحمة، والمغفرة، والاقتدار، واللجوء، والفزع إليه في كل أمر، فالاسم "إلهي" يدق عن التصور، ولكنه لا يدق عن الوصف، فالمنادى –عز وجل– يُنعم ويجزل من خلال غياب ذاته، وهو إنعام شامل كل البشرية دون محدودية، ولكن الإضافة (إلهي) تعبير خاص عن عاطفة خاصة بالمتكلم، وهي القرب والتودد مع الاستعطاف والتزلف إلى العفو والمغفرة، فالقرب له درجات، والمتكلم "الداعي" يشير إلى معنى متعاظم في نفسه، وهو الألوهية التي يتلاشى كل شيء عند ذكرها، وفي حذف أداة النداء وذكر ياء الإضافة إشارة إلى درجة عالية من التأله له –سبحانه وتعالى–، إنه يفصح عن التعبد والتنسك والإذعان، ولكنه أقحم أداة النداء عند التصريح بالسؤال(وأسألك يا إلهي...أن تغفر) فهل هو في حاجة إلى إجابة؟ السؤال طلب حق من الأدنى في الرتبة، وكل سؤال طلب[٢]، وقد ورد الطلب بالصيغة الخبرية زيادة في التأدب والتلطف مع من تقدم الإقرار بالتقصير في حقه –

(١) العقد الفريد ٣/٤٢٠.

(٢) الفروق اللغوية. أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تح: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، ص٤٥، ط١، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»١٤١٢هـ.

تعالى-، ولما كان الدعاء مما يؤنس النفس بالرجاء ويبسطها كان داعية إلى الثناء عليه -سبحانه وتعالى- طمعا في المغفرة والرحمة، ففي مد الصوت بـ"يا" مد تعظيم يخلص النفس من حولها وقوتها وغرورها إلى حول رحيب، وقوة لا متناهية، وإقرار بحق المجيب في إخلاص العبودية له، فانتقل من التأمل الباطني المتمثل في التضرع والشكوى والمناجاة إلى الانفعال الوجداني، فقوي إحساسه بالشعور بالضعف البشري، والتقصير الحقيقي الذي ترجم عنه ظهور "يا"، والأعرابي صادق الشعور، قوي الإحساس فيما يعانيه من آلام الشعور بتطهير النفس وتخليصها مما يشينها، فلم يصدر عن رغبة أو رهبة مما يحث على القول، ولكنه يصدر عن النفس الإنسانية العامة التي تميل إلى التطهر والتوبة مما لا يجمل بها، فآلامه ومعاناته وتضرعه وخشوعه ليست هموما فردية، ولكنها حقائق عامة، وطبائع إنسانية تشغل فكر كل إنسان يقظ الشعور، صحيح الفطرة، وهو اعتراف بالنقص البشري، وحاجته دائما إلى نبع روحي ينهل منه طاقات الأمل والصبر لمواجهة مشاق الحياة، ويفرغ فيه همومه وآلامه، وقد استحالت هذه الهموم الفردية إلى حقائق إنسانية مشتركة بين بني البشر جميعا، فانسلوا لائذين بجواره، معتصمين بألوهيته التي لا يشاركه فيها سواه، فتكررت المناجاة بنداء الله -عزوجل- بنداء محذوف الأداة، يقول الداعي: "إلهي عجّت إليك الأصوات بضروب من اللغات

يسألونك الحاجات، وحاجتي إليك إلهي أن تذكرني على طول البلاء إذا نسيني أهل الدنيا"[1] للحج موقف مكاني موحد، ومسرح يحشد جميع صنوف البشر على اختلاف لغاتهم وعوائدهم، وقوانينهم وتقاليدهم، وفروق أرضهم وجوهم، يجمعهم رباط واحد هو الإنسانية، والإنسانية شقان: وجدان وفكر، فالفكر ينظم حياتها، والوجدان يشبع حاجتها الروحية التي تمدها بالطاقة اللازمة للاستمرار دون يأس وضجر، والوجدانات الإنسانية العامة واحدة ولكن الأعراف والموروثات تنحو بها مناحي شتى، وهذا ما عبرت عنه فطرة الأعرابي البدوي حين ناجي ربه ودعاه، فأفرد مولاه بالذكر "إلهي"، وعمم بإدماج صوت دعائه في عجيج أصوات السائلين، فهو واحد منهم، وهمومهم واحدة، فأزال الفوارق الطبقية والعرقية بين ضروب البشر، وبحث عن الروابط والحقائق العامة التي جمعت الحجاج في موقف واحد، يحكمه قانون عام هو الحل الوحيد لسؤالاتها، وهو التأله لرب واحد، ثم أفرد حديثه الداخلي ومناجاته، فخصص حاجته بالذكر(وحاجتي)، وكرر المضمر فأظهره (إليك إلهي) لتأكيد صدق التوجه والتعلق بالله –تعالى– فيما يعن، فالتكرار نتيجة انفعال وتأثر بالموقف الذي تتجرد فيه النفس من شؤون الدنيا ومطامعها، وإرادة ضابطة عامدة إلى تكرار اللفظ (إلهي) لما تستشعره النفس من الثقة والكفاية، ومحو الحدود والفواصل، ولما في الأمر المدعو به من العناية – وهو متضمن قوله تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا

(١) العقد الفريد ٣/٤٢٤.

﴿تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة:١٥٢]- بحيث لا يتوجه فيه إلا إلى عظيم تفخيما له -جل شأنه- وتعظيما.

وقد يناجي أعرابي جلف ربه بفلسفة فطرية ترتب النتائج على المقدمات، وتربط بين الأسباب والمسببات مما يعجز عنه أصحاب الاتجاهات الفلسفية المعقدة، والرياضات الذهنية، يقول: "اللهم إن استغفاري إياك مع كثرة ذنوبي للؤم، وإن تركي الاستغفار مع معرفتي بسعة رحمتك لعجز! إلهي، كم تحببت إليّ بنعمتك وأنت غنيّ عني، وكم أتبغّض إليك بذنوبي وأنا فقير إليك! سبحان من إذا توعد عفا، وإذا وعد وفى"(١) إن الشعور بالتفريط في جنب الله -تعالى- مثير للنفس أن تبوح بالتقصير والعجز، وتلاشي الذات واضمحلالها؛ لتكشفها على حقيقتها في مناجاة المجيب -سبحانه وتعالى-، والأعرابي يفصح عن رغبة حقيقية في حصول المغفرة لذنوبه، والعفو عن زلاته، وهي رغبة قد تتحق أو لا، ولكن الأمل واسع، والطالب حريص، والسائل مُلح، والعذاب مرهوب، فالمناجاة مبنية على النداء بـ"اللهم"؛ لما لاسم الجلالة من قدسية، فللنفس عند سماعه شعور خاص، وهزة نفسانية خاصة به، فيوحي بصدق المتكلم، ووكادة أقواله وصدقها، وقرارتها في نفس سامعها، وهذا ما استشعره الداعي في نفسه فالتوكيد بـ(إن واللام) مكررتان تثبيت لنفسه هو، وقرار لها؛ لتهدأ، وتطمئن إلى عفو المولى -

(١) السابق٣/١٤٢٢.

تقدست أسماؤه-، وقد أذاب اطمئنان النفس الحواجز، وأضحى الخوف منه -تعالى- قربا وإيناسا، وأعرب طي حرف النداء (إلهي) مع تباين الحالين (تحببت، غنيّ، عني، أتبغّض، فقير إليك) عن القرب، والإقرار بالذنب، والخضوع، والذل إليه -تعالى- والمسكنة، والتبتل في حضرته، والتنسك له، والابتهال.

جرت الأساليب الفصيحة على حذف أداة النداء عند نداء الرب؛ لإقباله -تعالى- على عباده، وتخصيصه بهذا العلم (الرب) دون سواه، وقد تكرر هذا كثيرا في القرآن العظيم أدبا مع القريب الذي يعلم السر وأخفى، وقد ناجى أعرابي متعلقا بأستار الكعبة ربه رافعا يديه إلى السماء، يقول: "رب أتراك معذبنا وتوحيدك في قلوبنا، وما إخالك تفعل! ولئن فعلت لتجمعنّا مع قوم طالما أبغضناهم لك"(١) كسر الأعرابي غرور نفسه، ولم يثق بها، فبدا متجاهلا وهو العارف، فتساءل "رب أتراك؟" والشك والتجاهل ناتجان عن التأمل والملاحظة والتفكير في حقائق الأشياء، والتمييز بين الزور والبهتان، إن إحساس الأعرابي بسمو النفس فوق مستوى العبودية، ورفعتها عن إشراك غير الله -تعالى- معه في عبادته أبت أن يجمع معها مشركا، فابتدأ مناجاته بالنداء المحذوف "رب" تودد وتزلفا، وهو في حالة خاصة من الخشوع والتذلل والانكسار، والاعتراف بالخطأ والتقصير، فحدة الانفعال والتأثر في الموقف أملت عليه أن يعرب عن خوفه من العذاب وخشيته من ربه -جل شأنه- في

(١) العقد الفريد ١٤٢٣/٣

أسلوب استفهامي لايريد منه جوابا ولكنه يعرب عن حاجة في النفس إلى العفو والصفح، فأعرب أسلوب الإنشاء (النداء ثم الاستفهام) عن موجة حزن وخوف وخشية ورعدة هزت كيان النفس، وحركت موازين وجدانها وأحاسيسها، ولكن النفس استعادت هدوءها، بتدخل عمل العقل وتحسينه تعليل الاستنكار والتعجب من جمع الموحِّد مع غير الموحِّد في مشهد واحد ونتيجة حتمية واحدة وهي العذاب، فتدخل العقل تدخلا واعيا ليعزز عمل النفس وهو عدم ميل النفس إلى الاجتماع مع من تبغض، وهو ما صدقته السنة المطهرة عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا، قَالَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: حُبَّ اللهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ: "أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ"[1]، وحب الشيء يقتضي بغض نقيضه؛ وعلل الأعرابي بغض النقيض مرضاة لله –تعالى–، وهكذا برر الأعرابي استيجاب العفو والمغفرة، والحشر في زمرة الصالحين الموحدين.

(١) صحيح مسلم. كتاب (البر والصلة)، باب (المرء مع من أحب)، حديث رقم (٢٦٣٩)، ٢٠٣٢/٤.

الخاتمة

الحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام علـــى نبـــي الهدى وعلى آله وصحبه وسلم وبعد،،،

فقد طوف البحث في دعاء الأعراب، وعولج الموضوع قدر ما تيسر للجهد، وما وفق الله –تعالى– وأعان، وهو عمل لغوي بلاغي، تختلـف نتائجه باختلاف ثقافة المتلقي وذوقه وميله وطبيعة نفسه، ولكن توصـل البحث في الجانب النفسي لبلاغة دعاء الأعراب إلى ما يأتي:

- لم يكن "ابن عبد ربه" جامعا لعيون الأخبار من الأدب والشـعر فقط بل كان شاعرا ذواقة، يتأنق في اختيار ثمراته، ومن حذقه وتجويده جعل "الدعاء" في أول كتاب "كلام الأعراب"، فهو من حسـن الافتتـاح وجيده.
- لم تتنوع أدوات النداء في دعاء الأعراب بل اقتصرت على أداتين فقط من أدواته؛ وذلك لخصوصية المدعو، وتفرده بالعظمة والكمال، فلا يليق بجلاله أن يصرح بأدوات النداء ذات المقاطع المفتوحة، وحـروف التنبيه، وإذا وجدت أداة يكون ذلك مختصا بنفس الداعي، ومرتبطا بحاله النفسي والشعوري، وقد احتل النداء بـ"اللهم" المرتبة الأولـى فقـد ورد أربع وعشرين مرة في الدعاء، يليه النداء بـ"يا" فقد ورد خمس عشـرة مرة، وحذف النداء في أربعة مواضع، وهو مما له علاقة بنفس الداعي، ومساس بدخيل نفسه.

• وردت "اللهم" بعد مناجاة وكلام طويل، وفي مقام الجلال الذي يغري بطلب المغفرة والعفو، كما وردت في مقام الرجاء، وهو مقام حبٌّ وطمع، وفي مقام التضرع، كما وردت في مقام التوكيد والقسم، وتكررت في مفتتح تنقلات الأعرابي بين المعاني الجزئية الجديدة، فكانت رابطا صوتيا ودلاليا، يؤكد على وجوب التوجه إلى الله- تعالى- في جميع الأمور، وتقرير ذلك في الأذهان، وتكثف حضور الذات الإلهية صراحة في تكرار"اللهم"، أو إضمارا عبر الضمائر المستترة.

• يتدفق الإيقاع الصوتي للنداء صرخات تنفيس قوية عما في النفس من قلق وحرمان وأسى ونهك وضعف ومعاناة نفسية وبدنية.

• اصطفاء "يا" دون غيرها من أدوات النداء لنداء القريب المجيب؛ يفصح عن ما يعتلج في الصدر من خوف ورهبة وقلق، وما يقابله من الشعور بالثقة والطمأنينة في رحمة الله -تعالى-، واصطفاء اسم الجلالة "رب"؛ لأنه لفظ الدعاء، وهو مصدر الرعاية، كما تكرر النداء بـ"يا" في مقام التعظيم والتضرع، وهما من مقامات التكرير، فيتكرر النداء، ويكون امتداد الصوت مفرغا لما يعاني الداعي، وتمهيدا لطلب ما يبتغيه، وتذكيرا للنفس، واستثارة للحس والشعور، وإجلالا للمولى -عز وجل- وتعظيما.

• التوكيد بـ"إن" سنة متبعة في الدعاء لتيقن الداعي من الإجابة، وزيادة احتياط للقبول، فالتوكيد مبدأ يقينه وتمكينه في نفسه، وهو طالبه، والمقرّ به.

• جرت الأساليب الفصيحة على حذف أداة النداء عند نداء الـــرب؛ لإقباله –تعالى– على عباده، وتخصيصه بهذا العلم (الرب) دون ســـواه، وفي الحذف تحقيق لمعنى القرب المعنوي؛ ولـــذلك حـــذفت الوصـــلات والمهيآت.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١- إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشر. أبي العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر الكناني الشافعي، تح: دار المشكاة للبحث العلمي بإشراف أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط١، دار الوطن للنشر.الرياض١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

٢- أحكام القرآن. أبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، تح: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي. مؤسسة التاريخ العربي. بيروت ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٣- إحياء علوم الدين. أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، ط١، دار ابن حزم ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٤- أخبار الحمقى والمغفلين، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، شرحه: عبد الأمير مهنا، ط١، دار الفكر اللبناني١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م.

٥- أدب الكاتب. أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تح: محمد محي الدين، دار الطلائع ٢٠٠٩م.

٦- أسباب نزول القرآن. أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، تح: عصام بن عبد المحسن الحميدان ، ط٢، دار الإصلاح - الدمام١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٧- البرهان في علوم القرآن. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تح: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٨- البيان والتبيين. أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، ط٧، مكتبة الخانجي ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٩- البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة. أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، تح: د محمد حجي وغيره، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

١٠- تاريخ آداب العرب مصطفى صادق الرافعي، راجعه: عبد الله المنشاوي ومهدي البحقيري، مكتبة الإيمان.د.ت.

١١- التأملات في الفلسفة الأولى. ديكارت، ترجمة: عثمان أمين، عدد ١٢٩٧/٢ المركز القومي للترجمة ٢٠١٤م.

١٢- التحرير والتنوير.محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، توزيع مكتبة مصر.د.ت.

١٣- التفسير النفسي للأدب. عز الدين إسماعيل، ط٤، مكتبة غريب. د. ت.

١٤- تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر. كمال الدين أبي الحسن الفارسي، تح: مصطفى حجازي، مراجعة: د.محمود مختار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٤هـ ـ١٩٨٤م.

١٥- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم. زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السَلامي البغدادي الدمشقي الحنبلي، تح: شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس، ط٧، مؤسسة الرسالة - بيروت١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م،

١٦- الجامع الكبير (سنن الترمذي). أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تح:د. بشار عواد معرو ف، ط١، دار الغرب الإسلامي١٩٩٦م.

١٧- جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام. محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، تح: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، ط٢، دار العروبة - الكويت ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٨- الحيوان. أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الأسرة بالتعاون مع هيئة قصور الثقافة ٢٠٠٤م.

١٩- دلالات التراكيب دراسة بلاغية. د. محمد أبو موسى، ط٢، مكتبة وهبة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

٢٠- ديوان المعاني. أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد العسكري، دار الجيل. بيروت.

٢١- سنن أبي داود. أبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، تح: شعيب الأرنؤوط - محمد كامل قره بللي، ط١، دار الرسالة العالمية،١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م.

٢٢- سنن ابن ماجة. أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية. د. ت.

٢٣- السنن الصغرى -المجتبى من السنن -. أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي، تح: عبد الفتاح أبو غدة، ط٢، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب ١٤٠٦ -١٩٨٦م.

٢٤- السيرة النبوية. علي أبي الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الندوي، ط١٢، دار ابن كثير - دمشق١٤٢٥ ه.

٢٥- شرح المفصل. الزمخشري، تقديم: د.إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٢٦- الشفاء. الطبيعيات. ابن سينا، راجعه: د.إبراهيم مدكور، تح: د. عبد الحليم منتصر وغيره، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجصي.قم. إيران ١٤٠٦هـ ق.

٢٧- صحيح البخاري. أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ط١، دار ابن كثير. دمشق. بيروت١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٢٨- صحيح سنن ابن ماجه. محمد ناصر الألباني، ط١، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع. الرياض ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٢٩- صحيح مسلم. أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، دار إحياء الكتب العربية: فيصل عيسى البابي الحلبي - القاهرة (توزيع: دار الكتب العلمية. بيروت)١٤١٢هـ، صحيح مسلم. أبي الحسن مسلم بن الحجاج

النيسابوي، أشرف علي تصحيحه: نظر محمد الفاريابي، ط١، دار طيبة ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م.

٣٠- طبقات فحول الشعراء. محمد بن سلام الجمحي، تح: محمود محمد شاكر، الهيئة العامة لقصور الثقافة. الذخائر ٧٢.د.ت.

٣١- طبقات النحويين واللغويين. أبي بكر محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الزبيدي الأندلسي الإشبيلي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف. د. ت.

٣٢- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. يحيى بن حمزة العلوي، تح: د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

٣٣- العقد الفريد. أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تح: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، ط٣، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٩١هـ ـ١٩٧١م.

٣٤- عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير(مختصر التفسير العظيم). أحمد شاكر، ط٢، دار الوفاء ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٥- الفروق اللغوية. أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، ط١، تح: الشيخ. بيت الله بيات، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ«قم» ١٤١٢هـ. الفروق اللغوية. أبي هلال العسكري، تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع. القاهرة، د.ت،

٣٦- الفوائد. ابن القيم الجوزية. تح: خالد بن محمد، مكتبة الصفا ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٣٧- في فلسفة النقد بتصرف. د. زكي نجيب محمود، ط١، دار الشروق ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٣٨- لسان العرب. ابن منظور. تح: عبد الله علي الكبير وآخرين، دار المعارف. د. ت

٣٩- مختصر أبي القاسم عمر بن حسين بن عبد الله بن أحمد الخرقي. أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، تح: طه الزيني وغيره، ط١، مكتبة القاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.

٤٠- المرشد إلى فهم أشعار العرب. عبد الله بن الطيب المجذوب، ط٢، دار الآثار الإسلامية. وزارة الإعلام الصفاة. الكويت١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

٤١- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرنؤوط وغيره، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، مؤسسة الرسالة١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م.

٤٢- معيار العلم، الغزالي، تح: د.سليمان دنيا، ط٣، دار المعارف ٢٠١٨م.

٤٣- المطول شرح تلخيص المفتاح.سعد الدين مسعود التفتازاني، تصحيح: عثمان افندي زاده احمد رفعت، المكتبة الأزهرية للتراث١٣٣٠هـ.

٤٤- مقاييس اللغة. أبي الحسين أحمد بن فارس، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٤٥- مقدمة ابن خلدون. عبد الرحمن محمد بن خلدون، تح: د. علي عبد الواحد وافي، ط٢، مكتبة الأسرة ٢٠٠٦م.

٤٦- منهاج البلغاء وسراج الأدباء. حازم بن محمد القرطاجني، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، ط٣، دار الغرب الإسلامي. بيروت ١٩٨٦م.

٤٧- من الوجهة النفسية في دراسة الأدب. د. محمد خلف الله، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٦هـ ـــ ١٩٤٦م.

٤٨-النفس. أرسطو طاليس. ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني، مراجعة: الأب جورج شحاتة، ط٢، العدد ١٧١١/٢، المركز القومي للترجمة ٢٠١٥م.

٤٩- الواضح في أصول الفقه.أبي الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الظفري، تح: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٤٢٠هـ ـــ ١٩٩٩م.

٤٨- الوجوه والنظائر. أبي هلال العسكري، تح: محمد عثمان، ط١، مكتبة الثقافة الدينية ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

٥٠- الوساطة بين المتنبي وخصومه. علي بن عبد العزيز الجرجاني، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية. صيدا، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.